الكتـاب العاشر

الفصل الأول

1- بما أن إيبيوس تمتدّ بموازاة هذا الساحل كلّه، من سونيوس حتّى تساليا، باستثناء طرفي الجانبين[1]، فإنه من الملائم أن نضيف إلى ما سبق قوله، وصف الجزيرة، ثمّ نتحوّل إلى إيثوليا وأكارنانيا، أي إلى باقي أجزاء أوروبا.

2- تمتدّ جزيرة إيبيوس طولاً ما يقارب 1200 مرحلة من كينيوس إلى هيريستوس، أمّا عرضها فإنه ليس منتظماً: أقصاه حوالي 150 مرحلة. وتقع كينيوس قبالة ثرموبل، لكنّ حيّزاً صغيراً منها يقع خارج ثرموبل، بينما تقع هيريستوس وبيتالبا قبالة سونيوس. وعلى هذا النحو فإن الجزيرة تقع على ذلك الجانب من الخليج قبالة أتيكا، وبيوتيا، ولوكريدا، ومنطقة الماليين. وتبعاً لضيقها وطولها المشار إليه آنفاً، دعا القدماء إيبيوس، ماكريدا[2]. وأقرب نقطة بين الجزيرة والبرّ تقع عند خلكيدا، حيث تشكّل الجزيرة منعطفاً لتبرز نحو أوليدا ومناطق البيوتيين وتشكّل يوريبوس. وكان قد تسنى لي الحديث عن يوريبوس بتفصيل[3] أكثر، ومثله الحديث عن مناطق الخليج الواقعة واحدتها مقابل الأخرى في البرّ وعلى الجزيرة على جانبيّ يوريبوس، أي في الداخل والخارج[4]. وإذا كنت قد أغفلت شيئاً ما عندئذٍ، فإني سأضيفه الآن لتحقيق مزيد من الوضوح. وأشير أوّل ما أشير إلى أن شطر الجزيرة الواقع بين خليكيدا ومنطقة هيريستوس يدعى «تجويف»[5] إيبيوس، لأنّ الساحل ينعطف هنا نحو الداخل، ولكن مع اقترابه من خلكيدا يشكّل من جديد منحنى بارزاً يتّجه نحو البرّ.

3- ولكنّ الجزيرة لم تسمّ ماكريدا فقط، بل دعيت باسم أبانتيدا أيضاً. ومع أن هوميروس يذكر إيبيوس أيضاً، إلاّ أنه لا يدعو سكّانها إيبيين أبداً، بل أبانتيين:

ولكنّ الشعوب الإيبية، الأبانتيين الذين يتنفسون قتالاً...

obeikandl.com

لقد قاد هو[6] أولئك الأبانتيين...

(الإلياذا II، 536، 542)

وبحسب أرسطو[7] أن تراقيي آبا الثوكيدية، استوطنوا الجزيرة وأطلقوا على سكّانها اسم الأبانتيين. ويشتق الكتّاب الآخرون هذا الاسم من اسم بطل[8]، كما اشتقوا اسم إيبيوس من اسم بطلة[9]. ولكن قد تكون هذه التسمية جاءت على النحو الذي حصل فيه بووس آولي[10] والجزيرة[11] على اسميهما، وبووس آولي هذا كهف يقع على الساحل الذي يتّجه نحو إيجة (حيث يروى أن إيو ولدت إيباث هناك). كما دعيت الجزيرة أيضاً باسم أوخا، والاسم عينه يحمله أكبر الجبال المحلّية. وحملت الجزيرة إضافة إلى ذلك اسم إيللوبيا، نسبة إلى إيللوب ابن غيون (ويدعوه آخرون شقيقاً لآيكلس وكوفوس)، الذي يقولون إنه بنى إيللوبيا، وهي مكان في أوري الواقعة في هيستيوتيدا قرب جبل تيليفريوس، وضمّ إلى ممتلكاته هستيا، وبيريادا، وكيرينث، وإيديبسوس، وأوروبيا؛ ويقوم في هذا المكان الأخير الموْحى الأكثر صدقية (وهو موحى أبوللون السيلينونتي). أمّا الإيللوبيون فقد نزحوا إلى هستيا، ووسّعوا المدينة، وقد أرغمهم على ذلك، التيران فيليستيد بعد معركة ليفكترا. وبحسب ديموسفين[12]، إن فيليب وضع فيليستيد تيراناً على الأوريتيين أيضاً؛ وهذا هو الاسم الذي حمله الهستيون فيما بعد، أمّا مدينتهم فقد دعيت أوريوس بدلاً من هستيا. ولكنّ بعض الكتّاب يزعم العكس، إذ يقولون، إن أثينيين من ديموس أتيكا قد استوطنوا هستيا، كما سكن إريتريا سكّان ديموس الإرتريين. وبحسب ثيوبومبوس أنه بعد أن أخضع بيريكلس إيبيوس، نزح الهستيون بحسب الاتفاق، إلى مقدونيا، ونزل في أوريوس 2000 أثيني واستوطنوها (وكان هؤلاء من قبل هم سكّان ديموس الهستيين).

4- تقع أوريوس على سفوح جبل تيليفريوس، في المكان الذي يدعى دريموس والواقع على نهر كالاّنس، فوق صخرة عالية، وعليه ربّما تكون هذه المدينة قد حملت اسمها هذا[13]، لأنّ سكّانها السابقين الإيللوبيين كانوا جماعة جبلية. وربّما يكون أوريون الذي نشأ وتربى هناك، قد دعي باسمهم هذا. وعلى حدّ قول بعض الكتّاب، إنه كان للأوريين مدينتهم، ولكن بما أن الإيللوبيين شنّوا عليهم حرباً، فقد نزحوا إلى مكان آخر وسكنوا مع الهستيين؛ وبصرف النظر عن أن المدينتين اندغمتا في مدينة واحدة، إلا أنهما حملتا اسمين مثلما حملت المدينة عينها اسم لاكيديمون واسم إسبرطا. وأنا كنت قد قلت سابقاً[14]، إن هستيوتيدا في تساليا قد أخذت اسمها من الهستيين الذين طردهم البيرّيبيون من هناك.

5- وبمـا أن إيللوبيـا أرغمـتني علـى أن أبـدأ بالوصـف مـن هسـتيا واوريـوس، فـإني أتحـوّل الآن إلى المنـاطق الـتي تلـي هـذه الأمـاكن. فعلـى أراضـي هـذه الأوريـوس تقـع كينيوس، وعندها ديـون[15] وأثينـا ديـادس، اللتـان أسّسـهما الأثينيـون، والواقعتـان فـوق ذلـك الجـزء مـن المضـيق حيـث المعـبر إلى كينـوس. ومـن ديـون خرجـت جماعـة مـن المستعمرين إلى كانـا الإيولية. وتقـع هـذه الأمـاكن قـرب هسـتيا، وغير بعيـد عنهـا تقـع كيرينث، وهـي مدينة صغيرة قريبة من البحر؛ وعلى مقربة منها يجـري نهـر بـودور الـذي يحمل اسمه جبل في سلامين عند شواطئ أتيكا.

6- وتقـع كاريسـتوس عنـد سـفوح جبـل أوخـا، الـذي تقـع علـى مقربـة منـه مدينـة ستيرا ومدينـة مارمـاريوس، حيـث يقـع مقلـع حجـارة أعمـدة كاريسـتوس، ويقـوم معـبر أبوللـون المارماريوسـي. وثمّـة معـبر مـن هنـا عـبر المضـيق يـؤدّي إلى غـالا الأرافينديـة. ويستخرجون في كاريستوس حجارة تغزل وتنسج[16] وتصنع من غزولها مناشف؛ وعنـدما تتسخ هـذه المناشـف يرمـى بهـا في النـار فتغـدو نظيفـة كالقمـاش الكتـاني بعـد غسـله. ويقـال، إن هـذه الأمـاكن يشـغلها مسـتوطنون مـن مـدن المـاراثون الأربـع والسـتيريون. وكانت ستيرا قد دمّرت في الحرب اللامية[17] على يدي القائد الأثيني ثيدروس؛ ويمتلك الإرتريـون هـذه المنطقـة. وكاريسـتوس بـدورها تقـع في لاكونيكـا، وهـي مكـان في إيجيوس نحو أركاديا، حيث يصنع النبيذ الكاريسي الذي يذكره ألكمان.

7- ولم يؤت على ذكـر هيريستوس في «سجلّ السفن»، ومـع ذلـك فـإن هـوميروس يتحدّث عنها:

... مع هبوط الليل، وصلت السفن إلى هيريستوس،

(*الأوذيسا* III، 177)

ويشير إلى أن هذا المكان ملائم للعبور من آسيا إلى أتيكا، لأنـه يقـع علـى مقربـة مـن سونيوس. وفي هيريستوس معبد لبوسيدون، وهو المعبد الأكثر شهرة في هـذا الجـزء مـن العالم، وفيها أيضاً مستوطنة كبيرة.

8- وبعد هيريستوس تأتي إرتريا، وهي أكبر مدن إيبيوس بعد خلكيدا. وتـأتي بعد ذلك خلكيدا الـتي تعدّ بمثابـة عاصمة الجزيـرة، وهـي تقـع علـى يوريبـوس مباشـرة. ويقال، إن الأثينيين هم الـذين أسّسـوا هـاتين المـدينتين منـذ مـا قبـل وقـوع حـرب طـروادا؛ وبعد حرب طروادا، ترك آيكلس وكوفوس أثينـا؛ فسـكن أحـدهما في إرتريـا والآخـر في خلكيـدا. كمـا بقـي علـى الجزيـرة أيضـاً بعـض الإيـوليين مـن قـوّات بينثيلـوس؛ وفي الأزمنة القديمة سكن هناك أيضاً العرب الذين رافقوا قدموس. ومهما كـان الأمـر فـإن

تزايد جبروت هاتين المدينتين سمح لهما بإرسال جماعات كبيرة من المستعمرين إلى مقدونيا. فإرتريا سكنت المدن المتوضّعة حول باللينا وآفون؛ وسكنت خلكيدا المدن التابعة لسلطة أولينث، وهي المدن التي نهبها فيليب وخربها. وعلى نحو مماثل فعل الخلكيديون واستعمروا أماكن كثيرة في إيطاليا وصقليا. وبحسب أرسطو[18] أن الخلكيديين بنوا هذه المستعمرات عندما كانت السلطة هناك بين يدي حكومة الذين دعوهم بالفرسان. وقد كانت على رأس هذه الحكومة شخصيات انتخبت على أساس مقياس الملكية، وأدار هؤلاء شؤون الدولة بروح التوجهات الأرستقراطية. ولدى توجّه الإسكندر إلى آسيا[19] زاد الخلكيديون من امتداد محيط أسوار مدينتهم، فأدخلوا فيه هضبة كانيث ويوريبوس، وبنوا على الجسر الذي يمتدّ عبر المضيق برجاً وبوابة وسوراً[20].

9- فوق مدينة الخلكيديين يقع السهل المسمّى سهل ليلانس. وتقع في هذا السهل ينابيع مياه حارّة صالحة للاستشفاء من الأمراض. وقد أفاد القائد الروماني كورنيلوس سولاّ من هذه المياه. وكان يقوم هنا أيضاً منجم ممتاز احتوى على النحاس والحديد معاً، وهذا ما لا تجده في أيّ مكان آخر، كما يقولون. ولكنّ المنجم نضب من المعدنين الآن، مثله في هذا مثل مناجم الفضّة في أثينا. وتعاني إيبيوس كلّها (خاصة شطرها القريب من المضيق)، من الهزّات الأرضية القوية، ومن انطلاق الغازات التي تمرّ بين القنوات الجوفية، ومثلها أيضاً بيوتيا والمناطق الأخرى التي كنت قد قدّمت وصفاً تفصيلياً لها. ويقولون، إن ظاهرة مماثلة تسببت في ابتلاع الأرض للمدينة التي كانت تحمل اسم الجزيرة عينه. وقد أتى أسخيلوس على ذكر هذه المدينة في «فصل البونتس»:

إيبيدا التي قرب منحنى شاطئ زيوس الكيني،
عند قبر ليخوس التاعس الحظ.

(المقطع 30، ناؤوك)

وفي إيثوليا أيضاً مدينة تدعى خلكيدا:

وفي كاليدون الصخرية، وفي مدينة خلكيدا الساحلية،

(الإلياذا II، 640)

وفي إيليدا المعاصرة كذلك:

وهكذا ساروا قرب كروني وخلكيدا الصخرية،

(الإلياذا XV، 295)

أي تيليماخ ومرافقيه لدى عودتهم من عند نسطور إلى ديارهم.

10- أمّا إرتريا فيقول بعض المؤلّفين إن الـذي أسّسـها هـو إرتريـوس الماكيسـتي، من ماكيستوس الواقعة في تريثيليا، بينما يقول آخرون، إن مؤسّسيها هم مستعمرون من إرتريا الأفينية التي تقوم في مكانها الآن ساحة السوق. وهناك إرتريا أخرى قرب فارسال. لقد كانت تقع في أراضي إرتريا مدينة تامينا المكرّسة للإله أبوللون. ووفق الرواية أن المعبد القائم عند المضيق قد بناه أدميتوس، الذي يروى أن الإله نفسه قد خدم في منزله عاملاً مياوماً طول عام كامل. وفي الأزمنة السابقة كانت إرتريا تدعى ميلانيدا وآروتريا. وتتبع هذه المدينة قرية أمارينثوس الواقعة على بعد 7 مراحل عن أسوار المدينة. وكان الفرس قد دمّروا المدينة القديمة؛ وفي غضون ذلك، على حدّ قول هيرودوت[21]، كان البرابرة يصطادون السكّان الذين تبعثروا حول أسوار المدينة جماعات بالشباك (وحتى يومنا هذا يرونك أساسات المباني، ويدعى هذا المكان إرتريا القديمة). وقد بنيت إرتريا المعاصرة فوق [أنقاض] المدينة القديمة. ويشهد على الجبروت الذي كان للإرتريين القدماء، نصب أقاموه في زمن ما في معبد أرطميس الأمارينثية. فالنص المحفور على النصب يقول، إنهم أقاموا عرضاً احتفالياً شارك فيه 3000 مقاتل مسلح تسليحاً ثقيلاً، و600 فارس، و60 مركبة قتالية. لقد امتدت سلطة الإرتريين لتشمل الأندروسيين، والتيوسيين، والكيوسيين وسكّان الجزر الأخرى. كما استقبلوا مستوطنين جداً من إيليدا، وبما إنهم باتوا منذ ذلك الوقت يستخدمون غالباً حرف رو، لا في آخر الكلمات فقط، إنّما في وسطها أيضاً، فقد جعل منهم الكتّاب الهزليون بسبب ذلك محطّ سخرية. وثمّة على أراضي إرتريا قرية أخرى تدعى إيخاليا (وهي بقايا مدينة دمّرها هرقل)، وهي سميّة إيخاليا التراخينية، عند تريكا، وإيخاليا الأركادية التي دعيت بعد ذلك إندانيا، وإيخاليا الإيثولية الواقعة قرب اليوريتانيين.

11- وفي الوقت الراهن تشغل خلكيدا باعتراف جميعهم، المكانة الرائدة، وتعدّ ميتروبوليا الإيبيين؛ ثمّ تليها في المكان الثاني إرتريا. ولكنّ المدينتين كانت لهما في السابق أيضاً أهمية بارزة، إن في الحرب أو في السلم، ولذلك عدّتا مكانين هادئين ومريحين لإقامة الفلاسفة. وهذا ما تشهد به مدرسة الفلاسفة الإرتريين التي تزعمها مينيديموس وتلاميذه، وقبل ذلك أيضاً إقامة أرسطو في خلكيدا حيث بقي فيها حتّى وفاته[22].

12- وهكذا عاشت هذه المدن أكثر الأحيان في وفاق، وحتّى عندما تنازعت على سهل ليلانس لم يصل بها هذا النزاع حدّ حسم الأمور بالحرب، بل توافقت على كيفية إدارة الحرب وشروط اشتعالها. ويشهد على هذه الحقيقة نقش محفور على نصب

ما في معبد أمارينث يحرّم استعمال السلاح القاذف البعيد المدى. ومن المعروف أنه لم يكن للتقاليد القتالية أيّ ضوابط من قبل ولا في أيّ زمن كان. فبعضهم يستخدم السلاح القاذف البعيد المدى كالقوس والسهم، والمقاليع، والرماح المقذوفة؛ وآخرون يستخدمون سلاحاً للعراك، كالذي يستعمل السيف أو الرمح ليتفوّق على خصمه؛ فهم يستعلمون الرمح بطريقتين: أولاً، أثناء العراك باليدين، وثانياً، كمزراق، وعلى المنوال نفسه تستعمل خشبة الرمح للغرضين: للعراك بالأيدي، وللرمي عن بعد؛ وعلى النحو عينه يستعمل الساريسّا والمزراق(23).

13- لقد كان الإيبيون يجيدون القتال «المنتظم» الذي يدعى كذلك بالقتال «القريب» أو «العراك بالأيدي». وبحسب هوميروس أنهم كانوا يستعلمون الرماح الطويلة ليحقّقوا التفوّق:

والمقاتلون الذين تملؤهم الحمية، التوّاقون
لتمزيق دروع أعدائهم النحاسية بضربات
رماحهم الدردارية الطويلة...

(*الإلياذا* II، 543)

وربّما كانت الرماح المقذوفة نوع آخر من أنواع السلاح، على الأرجح «كرمح بيلوس الدرداري» الذي يقول هوميروس:

لم يكن بمقدور أيّ كان أن يزحزحه، لكنّ أخيلليس
كان يهزّه بسهولة.

(*الإلياذا* XIX، 389)

وعندما يقول أوديسيوس:

أرمي الرمح إلى أبعد مما يرمي الآخرون السهام،

(*الأوذيسا* VIII، 229)

فإنه يقصد بقوله هذا السهم المقذوف. وإذ يصف الشّاعر المتبارزين، فإنهم يتحاربون أولاً بالرماح المقذوفة، ومن ثمّ بالسيوف. وعلى أيّ حال لا تقتصر المبارزة على القتال بالسيف فقط، بل يستخدم فيها الرمح أيضاً، كما يقول الشاعر:

بالمزراق النحاسي طعنه، فدمّر أعضاء الجبّار.

(*الإلياذا* IV، 469)

على هذا النحو يصوّر هوميروس الإيبيين الذين يقاتلون بهذه الطريقة؛ لكنّ حديثه عن اللوكريين مغاير:

obeikandl.com

جاء اللوكريون إلى إيليون يحدوهم الأمل.
لم يكن لديهم الجلد في قتال المبارزة الذي يتطلّب الثبات.
لم يعتمدوا إلاّ على أقواسهم الأمينة والصوف المجدول
في مقاليعهم.

(الإلياذا XIII، 713، 716)

كما يروون أيضاً القول الشائع الذي قاله الموحى لسكّان إيجيوس:
جواد التساليين، والزوجة من لاكيديمون،
والرجال الذين يشربون ماء ينابيع أريفوسا المقدّسة،

وهو القول الذي يصف الخلكيديين بأنهم الأكثر شجاعة، فأريفوسا تقع في منطقتهم.

14- إن في إيبيوس الآن نهرين: كيرييوس ونيلييوس. وإذا ما شربت الأغنام من مياه النهر الأول فإنها تغدو بيضاء، أمّا إذا شربت من مياه الثاني فإنها تغدو سوداء. وأنا كنت قد تحدّثت سابقاً عن فعل مماثل تفعله مياه نهر كراثيدس.

15- وفي طريق العودة من حرب طروادا دفعت الأمواج بفريق من الإيبيين إلى شواطئ إيلليريا؛ ولما توجهوا من هناك إلى ديارهم عبر مقدونيا، استقر هؤلاء بجوار أديسّا وإذ قدّموا هناك عوناً عسكرياً للسكّان المحلّيين الذين قبلوهم بين ظهرانيهم، أسّسوا في المكان مدينة إيبيوس. كما كانت هناك إيبيوس أخرى أيضاً في صقليا، وقد أسّس هذه الإيبيوس الخلكيديون الصقلّيون؛ لكنّ هيلون طرد سكّانها، فتحوّلت بعد ذلك إلى موقع حراسة للسيراكوزيين. وفي كيركيرا وليمنوس كان ثمّة موقعان باسم إيبيوس، كما كان في منطقة آرغوس تلّ يحمل هذا الاسم نفسه.

16- وبما أن الإيثوليين، والأكارنانيين، والأثامانيين (إذا ما صح نسبهم للإغريق)، يعيشون إلى الغرب من التساليين والإيتيين، فإننا لكي ننتهي من وصف اليونان، بقي علينا أن نتحدّث عنهم. وينبغي أخيراً أن نضيف وصف الجزر، خاصة الجزر المجاورة لليونان والتي يسكنها اليونانيون الذين لم يتسنّ لي أن أتحدّث عنهم بعد.

الفصل الثاني

1- إن الإيثوليين والأكارنانيين يتاخم بعضهم بعضاً، لأنّ نهر أخيلوي واقع بينهما، وهو يجري من الشمال (من بيندس) إلى الجنوب عبر منطقة الأغريين، ومنطقة القبيلة الإيثولية، والأمفيلوخيين. ويشغل الأكارنانيون المنطقة الواقعة إلى الغرب من هذا النهر وصولاً حتّى الخليج الأمبراكي على مقربة من بلاد الأمفيلوخيين ومعبد أبوللون

الأكتي؛ أمّا الإيتوليون فلهم المنطقة الواقعة إلى الشرق من أخيلوي وصولاً حتّى اللوكريين الأوزوليين وبارناس الإيتي. وفي عمق البلاد، في المناطق الشمالية، إلى الأعلى من الأكارنانيين يعيش الامفيلوخيون، وإلى الأعلى منهم يعيش الدولوبيون ويعلو جبل بيندس؛ وإلى الأعلى من الإيتوليين يعيش البيرّيبيون، والأثامانيون، وفريق من من الإينيانيين الذين يشغلون إيتا. ويشاطئ الجهة الجنوبية، تحديداً جهة أكارنانيا وإيثوليا، البحر الذي يشمل خليج كورينثوس حيث يصبّ نهر أخيلوي؛ ويفصل هذا النهر بين شاطئ الإيثوليين وشاطئ الأكارنانيين. وفي الأزمنة القديمة كان أخيلوي يدعى ثوانس. وسميّ هذا النهر، كما قلت سابقاً[1]، النهر الذي يجري قرب ديما وكذلك قرب لاميا. وأنا كنت قد أشرت[2] إلى أن بداية خليج كورينثوس هي مصبّ هذا النهر.

2- إن مدن الأكارنانيين ومناطقهم هي الآتية. أناكتوريوس الواقعة في شبه الجزيرة غير بعيد عن أكسيوم. وتعدّ هذه المدينة الميناء التجارية لنيكوبوليس المعاصرة التي تأسّست في زمننا هذا[3]. ثمّ تأتي ستراتوس التي ينبغي الإبحار إليها صعوداً في نهر أخيلوي أكثر من 200 مرحلة؛ تليها إينيادا التي تقع على النهر أيضاً؛ ولم تعد مدينة إينيادا القديمة مأهولة اليوم، وهي تقع على مسافة واحدة من البحر ومن ستراتوس، أمّا إينيادا الحديثة فهي تقع على بعد 70 مرحلة تقريباً، إلى الأعلى من مصبّ أخيلوي. وتوجد هنا مدن أخرى أيضاً: باليرا، وأليزيا، وليفكادا، وآرغوس الأمفيلوخية. وأمبراكيا، وقد تحوّل أكثر هذه المدن، بل كلّها إلى ضواحٍ تابعة لنيكوبوليس. وتقع ستراتوس في منتصف الطريق من أليزيا إلى أناكتوريوس[4].

3- وللإيثوليين مدينتان، هما كاليدون وبليفرون، وقد تحوّلتا الآن إلى مدينتين خاويتين. ولكنّ هاتين المدينتين كانتا في الزمن القديم زينة بلاد اليونان. والذي حصل فعلاً، هو أن إيثوليا انقسمت إلى شطرين دعي أحدهما إيثوليا القديمة، والآخر إيثوليا- إيبيكتيتوس[5]. وإيثوليا القديمة، هي الساحل الممتدّ من أخيلوي حتّى كاليدون والموغل في عمق البلاد الخصبة المستوية؛ وتقع هناك ستراتوس وتريخونيوس التي تتوفّر على تربة ممتازة. وفيما يخصّ إيثوليا- إيبيكتيتوس، فإنها تتاخم بلاد اللوكريين في الاتجاه نحو ناوباكتوس ويوباليوس؛ وهذه المنطقة المتعرجة القاحلة تمتدّ حتّى إيتيا مباشرة، وإلى أرض الأثامانيين والجبال المحيطة نحو الشمال، والشعوب القاطنة هناك.

4- وأكبر جبال إيثوليا جبل كواركس المجاور لإيتا؛ ونذكر من الجبال الأخرى الواقعة غالباً في وسط البلاد، جبل أراكينثوس الذي أسّس سكّان بليفرون القديمة حوله بليفرون الجديدة بعد أن هجروا المدينة القديمة؛ وكانت هذه الأخيرة تقع

قرب كاليدون في رقعة خصبة مستوية. وكان ديميتري الملقب بالإيثولي قد نهب البلاد في هذا الوقت وخربها. وبعد ذلك يرتفع فوق موليكريا تاثياس وخالكيدا، وهما جبلان شاهقان تقع عليهما بلدتا ماكينيا وخالكيدا (سميّ الجبل الذي يدعونه أيضاً هيبوخالكيدا). وأخيراً يرتفع قرب بليفرون القديمة جبل كوريوس الذي دعا بعض الكتاب البليفرونيين كوريتين تيمناً به.

5- يبدأ نهر إيفين من منطقة البوميين، وهم قبيلة إيثولية (مثلهم مثل اليوريتانيين، والأغريين، والكوريتيين وغيرهم) تقطن في بلاد الأوثيين. ولا يجري هذا النهر بداية عبر منطقة الكوريتيين (التي تدغم بالمنطقة البليفرونية)، بل عبر الأراضي التي تقع أبعد نحو الشرق، قرب خلكيدا وكاليدون، ثمّ ينعطف نحو سهول بليفرون القديمة، وهنا يبدّل مجراه ويتّجه غرباً، ثمّ ينعطف جنوباً ويمضي إلى مصبّه. وكان هذا النهر يدعى في الأزمنة السابقة ليكورما. ويقولون، إن هرقل قتل نيسوس النوتي هنا، لأنه حاول أن يغتصب ديانيرا بينما كان يعبر بها النهر.

6- كما يدعو هوميروس مدينتي أولين وبيلينا[6] مدينتين إيثوليتين. والأولى منهما سميّة المدينة الآخية التي دمّرها الإيوليون، وكانت تقع قرب بليفرون الجديدة؛ وقد أثار الأكارنانيون نزاعاً بسبب حدودها. أمّا المدينة الأخرى- بيلينا- فقد نقلها الإيثوليون إلى مكان أعلى وبدّلوا اسمها فباتت تدعى بروسخيوس. ولا يعرف هيلاّنيكوس حتّى تاريخ هذه المدن، إلا أنه يأتي على ذكرها كأنها لا تزال تعيش الحالة السابقة. ولم يذكر من المدن القديمة سوى المدن التي تأسّست في وقت متأخر، بعد عودة الهيراقليين، كمدينة ماكينيا ومدينة موليكريّا، ويعرض في بحثه حالة من الإهمال تسود في كلّ مكان تقريباً.

7- وهكذا أكون قد قدّمت المعلومات العامّة عن بلاد الأكارنانيين والإيثوليين. أمّا فيما يخصّ الساحل البحري والجزر الواقعة أمامه، فإنه ينبغي أن نزيد على ما قلناه عنها الآتي. إن الموقع الأول في أكارنانيا ابتداء من مدخل الخليج الأمبراكي، هو أكسيوم. والاسم نفسه يحمله معبد أبوللون الأكتي والرأس البحرية التي تشكّل ثغر الخليج مع وجود ميناء على الجانب الخارجي. وعلى بعد 40 مرحلة من المعبد تقع أناكتوريوس الواقعة في الخليج، وعلى بعد 240 مرحلة تقع ليفكادا.

8- وفي الزمن القديم كانت هذه الجزيرة تشبه جزيرة أرض الأكارنانيين، ولكنّ هوميروس يدعوها «شاطئ القارّة»[7]، لأنه يدعو الساحل الواقع قبالة أتيكا وكيثالينا «قارّة»، وهذه ليست سوى أكارنانيا. وعليه فإنّ الشّاعر عندما يتحدّث عن

«ساحل القارّة»، ينبغي أن يكون المقصود «ساحل أكارنانيا». وتقع في ليفكادا مدينة نيريتوس[8] التي استولى عليها لايرتس (كما يقول هو نفسه:

... عندما كنت على رأس القوات الكيثالية

وجندلت نيريتون المدينة القائمة على الجرف

الصخري للقارّة)،

(*الأوذيسا* XXXIV، 377)

كما تقع هناك أيضاً المدن التي ذكرها هوميروس في «سجل السفن»:

[لقد قاد الملك أوديسيوس...]

أبناء كروكيليا الذين كانوا يحرثون حقول

إيغيليبوس القاسية.

(*الإلياذا* II، 633)

وفيما بعد لم يكتف الكورونثيون الذين أرسلهم كيبسيل وغورغ بالاستيلاء على هذا الساحل، بل توغلوا حتّى الخليج الأمبراكي؛ وعلى هذا النحو يكون المستعمرون قد شغلوا أمبراكيا وأناكتوريوس؛ ونقلوا نيريتوس إلى المكان الذي كان البرزخ يقوم فيه في زمن ما، والذي تحوّل الآن إلى مضيق يصل جانبيه جسر، ثمّ بدّلوا اسم المدينة فباتت تدعى ليفكادا؛ ربّما نسبة إلى رأس ليفكاتا البحرية. وليفكاتا هي فعلاً صخرة بيضاء اللون[9] موجودة في ليفكادا، وهي تبرز في البحر باتجاه كيثالينا، ومن لون الصخرة هذا أخذت الجزيرة اسمها.

9- ويقوم في هذه الجزيرة معبد لأبوللون، وفيها أيضاً المكان الذي يدعى «الوثبة»[10]، والذي يطفئ بحسب الخرافة شهوة الحب.

حيث سابفو لأول مرّة - تقول الأسطورة -

(بحسب قول ميناندرس)

اقتنصت بولع عارم ثاونوس المتغطرس،

انقضّت من أعلى الصخرة البيضاء،

متوسلة إياك في صلواتها، أيها الربّ الملك.

وهكذا مع أن سابفو بحسب كلام ميناندرس، هي أوّل من قفز من أعلى الصخرة، إلاّ أن الكتّاب العارفون أكثر منه بالتاريخ القديم، يؤكّدون أن كيثالوس الذي أغرم ببتيريل ابن ديون، هو أوّل من فعل ذلك. وكان عند اللوكانيين تقليد متوارث يرمون بموجبه أثناء الاحتفال بعيدهم السنوي من على منصّة الحراسة في أعلى

الصخرة، أحد المجرمين المحكومين، قرباناً لأبوللون بغية تفادي غضب الآلهة، وكانوا يربطون إلى جسم الضحية مختلف أنواع الريش والطيور، لكي يسهلوا القفزة، وكان يصطفّ في الأسفل على شكل حلقة، كثير من الناس راكبين قوارب صيد، وفور وصول الضحية يلتقطونه؛ وعندما يستعيد المجرم المعني وعيه، يأخذونه ويرمونه خارج حدود البلاد جاهدين في أثناء ذلك ألاّ يتعرّض لأي أذى. وبحسب مؤلّف «الألكميونيدس»[11] أنه كان لإيكاريوس، والدبنيلوبي، ولدان: أليزييوس وليفكاديوس، وقد حكم هذان في أكارنانيا مع والدهما. وبحسب إيثور أن هاتين المدينتين حملتا اسميهما.

10- ويدعى سكّان جزيرة كيثاليا اليوم كيثاليين؛ ولكنّ هوميروس يطلق هذا الاسم على كلّ من هم تحت حكم أوديسيوس الذين ينتمي إلى عدادهم الأكارنانيون أيضاً. وفعلاً، بعد أن قال هوميروس:

قاد الملك أوديسيوس الكيثاليين ذوي الروح العالية

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا وضواحي نيريتوس التربتوليتية.

(الإلياذا II، 631)

(نيريتوس، هو جبل شهير في هذه الجزيرة؛ وعلى النحو الذي يقول فيه:

قوّة من دوليخوس، قوّة من جزر إيخينادا المقدّسة،

(الإلياذا II، 615)

مع أن دوليخوس نفسها واحدة من الجزر الإيخينادية، و

وفي إثر البوبراسيين اندفعت شعوب إيليدا المقدّسة،

(الإلياذا II، 625)

بينما تقع بوبراسوس في إيليدا؛ و

أولئك الذين استولوا على إيبيوس، ومراعي

إرتريا وخليكدا،

(الإلياذا II، 536)

مع أن هذه المدن تقع في إيبيوس، و

يا أبناء طروادا، أيها الليكيون، وأنتم أيها الداردانيون، سادة المبارزات،

(الإلياذا VIII، 173)

لأنهم كانوا طرواديين أيضاً)، وبعد أن ذكر نيريتوس تابع قائلاً:

أبناء كروكيليا الذين كانوا يحرثون حقول إيغيليبوس القاسية

الذين تحت سلطتهم زاكينثوس، وكانوا يسكنون كلّ مكان

من ساموس، الذين سكنوا القارّة أيضاً، على الشاطئ المقابل

(الإلياذا II، 632)

وعلى هذا النحو فإنّ الشّاعر يعني «بالقارّة»[12] الساحل الواقع قبالة الجزر، بما فيها ليفكادا والشطر الآخر من أكارنانيا الذي يقول عنه:

اثنا عشر قطيعاً من الأبقار على اليابسة ومثلها من الماعز

(الأوذيسا XIV، 100)

ربّما لأنّ إيبيروتيدا كانت تمتدّ في الزمن القديم حتّى هذه الأماكن وكانت تحمل اسماً واحداً هو «القارّة». أمّا كيثالينا المعاصرة، فإن هوميروس يدعوها ساموس، حينما يقول مثلاً:

بين إيثاكا في المضيق وساما الشديدة الانحدار...

(الأوذيسا IV، 671)

فباستخدامه الصفة يميّز الشّاعر بين الأشياء التي تحمل تسمية واحدة، فهو لا ينسب الاسم إلى المدينة، إنّما للجزيرة. لأنّ الجزيرة كانت تشكّل سياسياً أربع مدن، وقد حملت واحدة من هذه [المدن] الأربع، وهي المدينة السميّة الجزيرة، اسمين: ساموس وساما. وعندما يقول هوميروس:

كلّ الذين عندنا على الجزر أفذاذ وأقوياء،

وأولهم ناس دوليخوس، وساما، وزاكينثوس الغابية،

(الأوذيسا IV، 245)

فمن الواضح أنه يعدّد الجزر، وقد دعا الجزيرة التي تشغل المكانة الأولى[13]، ساموس، واسمها هنا ساما. ولكن عندما يزعم أبوللودوروس في مكان ما أن الشاعر، وسعياً منه لتفادي ازدواجية المغزى، يقول وهو يعني الجزيرة:

... وساما الشديدة الانحدار..

(الأوذيسا IV، 671)

وفي مكان آخر يطلب أن نقرأ

... دوليخوس، وساما

(الأوذيسا I، 246)

بدلاً من ساما، فمن الواضح أنه يرى أن المدينة كانت تسمى ساما وساموس على حدّ سواء، بينما لم تكن الجزيرة تدعى إلا ساموس فقط. وحسب أبوللودوروس أن ما

يؤكّد أن المدينة كانت تدعى ساما، هو أنه لدى تعداده الخطّاب من كلّ مدينة، يقول الشاعر[14]:

أربع وعشرون رجلاً جاؤوا إلينا من ساما،

(الأوذيسا XVI، 249)

ويتّضح هذا الأمر أيضاً من حكاية كتيمينا:

زوّجوها بعد ذلك لرجل من ساما.

(الأوذيسا XV، 367)

إن أفكار أبوللودوروس هذه لا يعوزها الأساس. فهوميروس لم يفصح بوضوح عن كيثالينا، وإيثاكا وسواهما من الأماكن المجاورة، ولذلك تختلف آراء المعلّقين والمؤرّخين في هذه المسألة.

11- وهاكم مثلاً عندما يتحدّث هوميروس عن إيثاكا:

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا وضواحي نيرتيوس التريبتولية

(الإلياذا II، 632)

فإن الصفة تشير بوضوح إلى أن المقصود هنا هو جبل نيريتوس، وهو يدعوه في أماكن أخرى جبلاً بالتحديد:

أعيش في إيثاكا المضيئة كالشمس، حيث يرتفع

هناك الجبل التربتوليمي، نيريتوس...

(الأوذيسا IX، 21)

بيد أنه يتّضح من بيت الشعر الآتي ما إذا كان الشّاعر يعني بإيثاكا المدينة أم الجزيرة:

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا، وضواحي نيريتوس التريبتولية.

(الإلياذا II، 632)

فإذا أخذنا هذه الكلمة بمغزاها الحقيقي، فإنه ينبغي تأويلها بمعنى «مدينة»، كما لو قلنا مثلاً «أثينا وليكابيتوس»، أو «رودوس وأتابيريس»، أو «لاكيديمون وتايجيت». أمّا إذا أخذناها بالمغزى الشعري، فإن المعنى ينقلب إلى ضده. ومع ذلك فإن معنى الكلمة واضح في بيت الشعر الذي يقول:

أعيش في إيثاكا المضيئة كالشمس، هناك... نيريتوس..

(الأوذيسا IV، 21)

فالجبل يقع في الجزيرة وليس في المدينة. ولكن عندما يقول الشاعر:

obeikandi.com

نحن من إيثاكا الواقعة تحت منحدر نييون المكسي بالغابات،

(الأوذيسا II، 81)

فإنه من غير الواضح ما إذا كان الشّاعر يرى أن نييون هو نيريتوس عينه، أم أنه جبل آخر أو مكان آخر. ولكنّ من يكتب «نيريكوس» بدلاً من «نيريتوس» أو بالعكس، فإنه يقترف بذلك خطأً فاحشاً؛ فالشّاعر يدعو الثاني، تريبتوليمياً»[15]، بينما يأتي على ذكر الأول «كمدينة باذخة»[16]؛ ويقع الثاني «في إيثاكا»[17]، أمّا الأول فإنه «شاطئ القارّة»[18].

12- ومن الواضح أن التعبير الآتي يظهر بدوره بعض التناقض:

... هناك في الغرب

تقع إيثاكا في منخفض [chthamale] يحيط [panhypertate] بها البحر،

(الأوذيسا IX، 25)

فكلمة chthamale تعني «منخفضة» أو «واطئة»، بينما كلمة panhypertate تعني «عالية»، وهكذا يشير الشّاعر إلى الجزيرة في بعض الأماكن الأخرى، فيدعوها «بالأرض الصخرية»[19]. ويدعو الشّاعر الطريق التي تنطلق من الميناء

... درباً صخرية

تمتدّ عبر مكان غابي

(الأوذيسا XIV، 1)

نادرة فيها السهول وقد تغدو مشمسة [Eudeielos]

تلك التي تحتضنها الأمواج؛ وفي إيثاكا أقلّ من غيرها.

(الأوذيسا IV، 607)

هذه هي إذن التناقضات التي يحملها تعبير هوميروس، بيد أن لها تفسيراً مرضياً. أولاً، لا يرون أن كلمة chthamale تعني «واطئة» أو «منخفضة»، بل «المجاورة للقارّة» لأنها تقع على مقربة مباشرة منها؛ ثانياً، إن كلمة panhypertate لا تعني هنا «الأكثر علواً»، بل «الأكثر علوّاً في الاتجاه نحو الظلام»، أي التي تقع أبعد من غيرها نحو الشمال؛ لأنّ هذا ما رمى إليه الشّاعر بقوله: «في الاتجاه نحو الظلام»؛ والمعنى المغاير هو «بالاتجاه نحو الجنوب»:

والآخرون بعيداً (aneuthe) نحو الطرف الأقصى،

حيث تشرق إيوس وهيليوس؛

(الأوذيسا IX، 26)

obeikandi.com

لأن كلمة aneuthe تعني «بعيداً»، أو «بعيداً عن»، فالجزر الأخرى تقع في الاتجاه نحو الجنوب وأكثر بعداً عن القارّة. أمّا إيثاكا فإنها قريبة إلى القارّة وبالاتجاه نحو الشمال. وكون هوميروس يرمز على هذا النحو إلى المنطقة الجنوبية، واضح من قوله:

أتسرع الطيور يميناً نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،
أم يساراً تندفع ذوات الريش نحو الغرب الكئيب

(*الإلياذا* XII، 239)

والأوضح من هذا قوله:

إننا لا نعرف أيها الأصدقاء، أين يتوضّع الغرب، أين يظهر إيوس،
أين يهبط هيليوس حامل النور تحت الأرض، أين يصعد السماء.

(*الأوذيسا* X، 190)

فهذا التعبير يمكن تأويله بمعنى جهات الكون الأربع[20]، إذا ما أخذنا كلمة «الفجر» بمعنى المنطقة الجنوبية (وفي هذا بعض من الممكن)؛ بيد أنه من الأفضل أن نأخذها هنا بمعنى المنطقة الممتدّة على طول طريق الشمس، والتي تقع قبالة المنطقة الشمالية. لأنّ أوديسيوس أراد أن يشير في كلمته إلى تبدّل مهمّ ما في الظاهرات السماوية، وليس إلى كون جهات الكون مخفيّة عنّا وحسب. فحلول الظلام حتميّ في كلّ مرّة تتلبّد فيها السماء بالغيوم، سواء في الليل أو في النهار. ولكنّ تغيّر الظاهرات السماوية يكون أكبر بما لا يقاس لدى تقدّمنا أكثر أو أقل نحو الجنوب أو بالاتجاه المعاكس. بيد أن تقدّمنا لا يقصي الغرب أو الشرق من مجال الرؤية (لأن هذه الظاهرة تقع في الطقس الصحو أيضاً). فأقصى نقاط السماء شمالاً هي دائرة القطب. ولكن إذا كانت دائرة القطب تتحرّك، فتقع في السمت فوقنا تارة، وتحت الأرض تارة أخرى، فإن الدوائر القطبية تتغيّر بدورها تبعاً لها؛ ولدى مثل هذه الانتقالات، تختفي الدوائر القطبية تماماً في بعض الأحيان[21]، بحيث لا نستطيع أن نحدّد أين تقع جهة الشمال[22]، أو حتّى أين تبدأ. وفي هذه الحالة تكون الجهة المقابلة مجهولة أيضاً[23]. وعلى وجه العموم فإن امتداد محيط إيثاكا يبلغ 80 مرحلة. وهذه هي معلوماتي عن إيثاكا.

13- أمّا كيثالينا التي تشكّل أربع مدن، فإن هوميروس لا يدعو هذه الجزيرة باسمها المعاصر، وكذلك الأمر بالنسبة لكلّ مدينة من مدنها، ما عدا ساما أو ساموس التي والحق يقال لا وجود لها الآن، ولكن بقاياها ظاهرة في منتصف طريق البرزخ إلى إيثاكا. ويدعى سكّانها بالساميين. أمّا المدن الأخرى التي لا تزال موجودة حتّى اليوم، فهي مدن لا أهمية لها: بالا، وبرونيس، وكراني. وفي أيامنا هذه أسس

obeikandl.com

غايوس أنطونيو، عمّ مارك انطونيو، مدينة أخرى هناك، عندما أنهى قنصليته التي كان فيها رفيقاً لسيتسيرون الخطيب، ونُفي[24] إلى كيثالينا التي وضعها كلّها تحت سلطته مدّعياً أنها من أملاكه الخاصة. بيد أنه لم يتسنّ لمارك أنطونيو أن يتمّ بناء المدينة، وإذ سمح له[25] بالعودة إلى وطنه توفى هناك وهو مشغول بقضايا أكثر أهمية.

14- وقد تجاسر بعض الكتّاب على إدغام كيثالينا بدوليخوس، وتجاسر آخرون على إدغامها بتافوس، ودعوا الكيثالينين تافوسيين، وكذلك تيليبويين. فهم يقولون، إن أمفيتريون شنّ حملة على هذه الجزيرة ومعه كيثالوس ابن ديونييوس المنفي من أثينا. وبعد أن استولى أمفيتريون على الجزيرة منحها لكيثالوس؛ فدعيت كيثالينا على اسمه، وحملت مدنها أسماء أبنائه. ولكن هذه الأخبار لا تتوافق مع أخبار هوميروس؛ فالكيثالينيون، وفق هوميروس، كانوا تحت حكم أوديسيوس ولايرتس، وكانت تافوس تحت حكم مينتيس:

الحكيم ابن أنخيالوس، مينتيس يدعونني، وأحكم
شعب التافوسيين المرح.

(*الأوذيسا* I، 181)

وتدعى تافوس الآن تافينونت. وهيلاّنيكوس بدوره لا يحذو حذو هوميروس، بل يدغم كيثالينا بدوليخوس؛ فهوميروس يقدّم دوليخوس وباقي جزر إيخينادا تابعة لحكم ميغيس، ومثلها أيضاً سكّانها الإيبيين الذين جاؤوا إلى هناك من إيليدا. ولذلك فإن هوميروس يدعو الكيلليني أوتوس:

صديق فيليدس، قائد مقاتلي الإيبيين الشجعان

(*الإلياذا* XV، 519)

لقد قاد الملك أوديسيوس الكيثاليين ذوي الروح العالية.

(*الإلياذا* II، 631)

وهكذا بحسب هوميروس أن كيثالينا ليست دوليخوس، إنّما هذه الأخيرة جزء من كيثالينا، كما يقول أندرون. فدوليخوس امتلكها الإيبيون، وتملك كيثالينا كلّها الكيثاليون الذين كانوا تحت سلطة أوديسيوس، بينما خضع الإيبيون لميغيس. وحتّى بالا لم يدعها هوميروس دوليخوس، كما يكتب ثيريكيدس. وهذا الأخير، هو أكثر من يناقض هوميروس إذ يدغم كيثالينا بدوليخوس، إذا كان فعلاً «قد جاء من دوليخوس اثنان وخمسون» خاطباً، ومن «ساما أربعة وعشرون»[26]. وفي واقع الحال ما كان الشّاعر ليقول، إن هذا العدد كلّه من الخطّاب قد جاء من مختلف أنحاء

الجزيرة، بل كان سيقول إنهم جاؤوا من واحدة فقط من مدنها الأربع، أي نصف هذا العدد ناقص اثنين. وحتّى لو سلّمنا بهذا، فإني أسأل، ما الذي يعنيه الشّاعر بكلمة ساما في البيت الآتي:

دوليخوس، وساما، وزاكينثوس الغابيّة

(الأوذيسا I، 246)

15- تقع كيثالينا قبالة أكارنانيا على بعد 50 مرحلة تقريباً (وحسب آخرين 40 مرحلة) من ليفكاتا، وما يقارب 180 مرحلة من هيلوناتوس. ويبلغ محيط الجزيرة حوالي 300[27] مرحلة، وهي تمتدّ طولاً باتجاه يفروس، وتغطي[28] الجبال أنحاء الجزيرة. وأكبر جبالها، هو جبل إينوس حيث يقوم معبد زيوس إينيسييوس. وفي المكان الذي تضيق فيه الجزيرة إلى أقصى حدّ، تشكّل برزخاً منخفضاً تغمره الأمواج من البحر إلى البحر في كثير من الأحيان. وتقع بالا وكراني في الخليج على مقربة من البرزخ.

16- وبين إيثاكا وكيثالينا تقع جزيرة صغيرة، هي جزيرة إستيريا (يدعوها هوميروس إستيريدا)؛ ويقول ديميتري إلسكيبسيسي عن هذه الجزيرة، إنها لم تبق على الحال التي وصفها الشاعر:

... للسفن هناك مرسى وملجأ

ومن الشاطئين تستقبلها.

(الأوذيسا IV، 846)

ولكنّ أبوللودوروس يزعم، أن هذه الجزيرة الصغيرة لا تزال باقية كما كانت، ويذكر فيها مدينة صغيرة اسمها ألالكومينا تقع على البرزخ مباشرة.

17- ويدعو هوميروس تراقيا باسم ساموس، وهذه التراقيا، هي التي ندعوها نحن الآن ساموتراقيا. ويبدو أن الشّاعر كان يعرف ساموس إيونية أيضاً، لأنه على أغلب الظنّ كان على علم بحركة النزوح الإيونية، وإلاّ لكان هوميروس قد خلط بين الأماكن التي تحمل الأسماء عينها، إذ يعاكس بعضها ببعض؛ فهو حينما يتحدّث عن ساموتراقيا، فإنه يميّزها تارة بصفة:

من قمم الجبال، من أعلى تيارات ساما الغابية

في تراقيا الجبلية،

(الإلياذا XIII، 12)

وتارة أخرى يوحدها مع الجزر القريبة:

إلى إيمبروس، إلى ساموس النائية، وإلى

ليمنوس الضبابية التي لا تحابي؛

(الإلياذا XXIV، 753)

أو:

بين ساما المقدّسة وإيمبرا ذات الجرف الخطر.

(الإلياذا XXIV، 78)

وهكذا يتّضح أنّ الشّاعر كان على معرفة بالجزيرة، مع أنه لم يذكر اسمها. والحقيقة أن الجزيرة لم تدع بهذا الاسم في الأزمنة السابقة، فقد كانت تدعى ميلامفيلوس، ثمّ أنثيميدا، وبعد ذلك بارثينيا (نسبة إلى نهر بارثينيوس الذي بات يدعى فيما بعد إيمبراس). وبما أن كيثالينا وساموتراقيا كانتا تحملان في زمن حرب طروادا اسم ساموس (وإلاّ لما جعل هوميروس هيكابي تقول، إن أخيلليس

... باع في إيمبروس، وساموس النائية

(الإلياذا XXIV، 752)

أبناءها الذين وقعوا لديه أسرى)، وساموس الإيونية لم تكن قد سُكنت بعد، فإنه من الواضح أن ساموس قد سميت على اسم واحدة من الجزر التي كانت تحمل هذا الاسم. ومن هنا يغدو واضحاً أن زعم بعض الكتّاب يناقض التاريخ القديم، إذ يزعم هؤلاء أنه بعد هجرة الإيونيين ووصول تيمبريون إلى الجزيرة، جاء المستعمرون من ساموس ودعوا سامو تراقيا باسم ساموس؛ فالساموسيون اختلقوا هذه القصة ليكسبوا جزيرتهم مجداً. ويستحقّ الثقة أكثر أولئك الكتّاب الذين يرون أن الجزيرة أخذت اسمها من المرتفعات التي كانت تدعى «سامات». ومن هنا جاء قول هوميروس.

... بان إيدا عظيماً،

وبانت طروادا بريام ومعسكر أسطول الآخيين

(الإلياذا XIII، 13)

وأخيراً، هناك فريق ثالث من الكتّاب يرى أن ساموس أخذت اسمها من اسم السائيين الذين سكنوا الجزيرة قبل التراقيين، والذين كانوا يمتلكون الشطر المجاور من القارّة أيضاً؛ ولكن هل كان هؤلاء السائيون هم السابيون أو السيناتيون عينهم (ويدعوهم هوميروس سينتيين)، أم هؤلاء كانوا قبيلة أخرى؟ الأمر لا يزال غامضاً. فأرخيلوخ يأتي على ذكر السائيين:

يحمل السائي الآن متفاخراً، ترسي الذي لا عيب فيه،

فرغماً عني رميته في الدغل

(مقطع 6، برغك)

18- لم يبق من الجزر الخاضعة لحكم أوديسيوس لكي نصفها سوى جزيرة زاكينوس. وهذه الجزيرة تتّجه بعض الشيء أكثر من كيثالينا نحو الجهة الغربية من البيلوبونيز، وهي أقرب إلى هذه الكيثالينا. ويبلغ امتداد محيط زاكينثوس 160[29] مرحلة. وهي تقع على ما يقارب 60 مرحلة من كيثالينا؛ ومع أن هذه الجزيرة جزيرة غابيّة إلاّ أنها خصبة؛ وفيها مدينة كبيرة تحمل اسمها عينه. والمسافة من هنا إلى هسبيريدس الليبية 3300 مرحلة.

19- وإلى الشرق من زاكينثوس وكيثالينا تقع جزر إيخينادا، وتنتمي دوليخوس إلى هذه الجزر (وهي تدعى الآن دوليخا)، وكذلك أوكسي التي يدعوها هوميروس ثويي. وتقع دوليخا قبالة إينيادا ومصبّ نهر أخيلوي، بعد 100 مرحلة من أراكس، ورأس الإيليين البحرية؛ أمّا جزر إيخينادا الأخرى (وهي عدة جزر قاحلة صخرية)، فهي تقع أمام مصبّ أخيلوي؛ وتقع الأبعد منها مسافة 15 مرحلة، والأقرب على مسافة 5 مراحل من هذا المصبّ. لقد كانت هذه تقع، في الأزمنة الغابرة، في عرض البحر، لكنّ تراكم كميات كبيرة من الرواسب التي حملها أخيلوي، حوّل قسماً منها إلى برّ، والمصير نفسه سيحلّ بالقسم الآخر في المقبل من الأيام. وفي الزمن القديم جعل هذا الوضع من المنطقة التي تدعى باراخيلويتيدا، التي طمرها النهر، موضع نزاع، لأنّ الترسبات النهرية كانت تغيّر باستمرار خطّ الحدود المتفق عليه بين الأكارنانيين والإيتوليين. وبسبب عدم وجود طرف ثالث يحكم بين الطرفين، كانت هاتان القبيلتان تلجآن دائماً إلى السلاح لحسم النزاع الناشئ، ومن البدهي أن الطرف الأقوى هو الذي كان يحسم الخلاف لصالحه. وعلى خلفية هذه الأحداث، ظهرت أسطورة تحدّثت عن الهزيمة التي ألحقها هرقل بأخيلوي، ونال مكافأة على ذلك، ديانيرا ابنة إينيوس التي أنطقها سوفوكليس بقولها:

لقد خطبني إله النهر، أخيلوي نفسه،
طلبني من والدي، إذ جاء في إهابات ثلاثة:
فرمح في هيأة عجل، وزحف في صورة ثعبان،
وظهر في إهاب رجل حرشفيّ له رأس ثور.

(*التراخينيات* 7-11)

ويضيف بعض الكتّاب إلى الأسطورة، أن القرن الذي اقتلعه هرقل من رأس أخيلوي وقدّمه إلى إينيوس مهراً لديانيرا، كان قرن أمالثيا. وسعياً منهم لاستشفاف الحقيقة في هذه الأسطورة يزعم كتّاب آخرون أن أخيلوي، مثله مثل الأنهار الأخرى،

دعوه «شبيه الثور» بسبب صوت هدير مياهه الذي يشبه صوت خوار الثور؛ ومن خيوط التيار التي دعيت بالقرون، جاءته تسمية «شبيه التنين»، بسبب طولها وشكلها المتعرّج؛ وأخيراً شبّهوه «برأس الثور» لأنهم تخيلوه في صورة ثور. ويقول هؤلاء عن هرقل، إنه على وجه العموم كان يميل لفعل الخير، خاصة عندما يتعلّق الأمر بإينيوس؛ فخدمة لإينيوس لجم هرقل تيار النهر المتنافر بالردميات والقنوات، فجفّف بذلك شطراً كبيراً من باراخيلويتيدا؛ وهذا هو قرن أمالثيا. ويقول هوميروس، إن إيخينادا وأوكسيي كانتا في زمن حرب طروادا تحت حكم ميغيس:

... ميغيس فيليدس،

ابن الفارس فيلييوس حبيب الآلهة، الذي

اختبأ من غضب والده يوماً في أطراف دوليخوس.

(الإلياذا II، 628)

لقد كان والده هو آفغيوس حاكم بلاد الإيليين والإيبيين؛ ولذلك امتلك الإيبيون الذين هاجروا مع فيلييوس إلى دوليخوس، هذه الجزر.

20- لقد كانت جزر التافوسيين، وفي الأزمنة الغابرة التيليبويين، التي تنتمي إليها تافوس (تدعى الآن تافيونت)، منفصلة عن جزر إيخينادا، ولم تكن المسافة هي الفاصل بينها، بل خضوعها لحكّام مختلفين هو الذي فصل بينها، فقد حكمها التافوسيون والتيليبويون. وفي الأزمنة الغابرة شنّ امفتريون حرباً عليهم ومع كيثالوس ابن ديونييوس، الأثيني المنفي، ثمّ منح هذا الأخير السلطة عليهم. ولكنّ هوميروس يقول، إنهم كانوا تحت حكم ميغيس[30]، ويصفهم بأنهم عصابات من قطّاع الطرق[31]، وعلى وجه العموم هكذا كانوا يرون في التيليبويين كلّهم. إن تلك كانت معلوماتي كلّها عن الجزر الواقعة أمام أكارنانيا.

21- وبين ليفكادا والخليج الأمبراكي تقع بحيرة مالحة تدعى مورتونتيوس. وبعد ليفكادا مباشرة تقع المدينتان الأكارنانيتان بالير وأليزيا؛ وتبعد هذه الأخيرة 50 مرحلة عن البحر؛ وهناك يقع خليج مكرّس لهرقل، وأرض مقدّسة. ومن هنا حمل أحد القادة الرومان «مآثر هرقل» إلى روما: وهي منحوتة نحتها ليسيبوس، وكانت تقوم هناك مهملة في مكان غير لائق. ثمّ تلي ذلك رأس كريفونت البحرية، وإيخينادا، ومدينة إستانك سميّة مدينة أخرى تقع قرب نيقوميديا والخليج الإستانكي (يستخدم هذا الاسم بصيغة المؤنث). وتحمل كريفونت الاسم عينه الذي تحمله مدينة صغيرة في كيرسونيس التراقية. وتقع على طول الشاطئ بين هذه النقاط موانئ ومراسٍ جيّدة.

وتأتي بعد ذلك إينيـادا وأخيلـوي؛ ثمّ بحيرة إينيـادا الـتي تـدعى ميليـت، طولها 30 مرحلـة وعرضها 20 مرحلة؛ تليها بحيرة كينيا التي طولها وعرضها ضعف طول بحيرة ميليت وعرضها؛ ثمّ بحيرة أوريا، وهي أصغر بكثير من سابقتيها. وتصبّ كينيا في البحر، أمّا البحيرتان الأخريان فتقعان أعلى بما يقارب النصف مرحلة. ويأتي بعد ذلك نهر إيفنوس الذي تبلغ المسافة بينه وبين أكسيوم 670 مرحلة. ويرتفع خلف إيفنوس جبل خالكيدا الذي دعاه أرتيميدور خالكيوس. وتأتي بعد ذلك مدينة بليفرون، ومستوطنة هاليكيرنا التي تقع فوقها في عمق البلاد (مسافة 30 مرحلة)، مدينة كاليدون. وعلى مقربة من كاليدون يقوم معبد أبوللون اللافري. ثمّ يعلو بعد ذلك جبل تافياس؛ وتليه مدينة ماكينيا، وموليكريا، وعلى مقربة تقع منطقة أنتيريون التي تشكّل الحدود بين إيثوليا ولوكريدا، والمسافة بينها وبين إيفنوس حوالي 120 مرحلة. والحقيقة أن أرتيميدور لا يتحدّث عن هذا الجبل على هذا النحو (سواء دعوناه خالكيدا أو خالكيوس)، فهو يوضّعه بين أخيلوي وبليفرون؛ أمّا أبوللودوروس فإنه، كما ذكرت سابقاً[32]، يوضّع خالكيدا وتافياس فوق موليكريا، أمّا كاليدون فإنها تقع بحسب قوله، بين بليفرون وخالكيدا؛ وعلى وجه العموم، ربّما يكون من الضروري التفريق بين جبل خالكيدا الواقع عند بليفرون، وجبل خالكيدا الواقع عند موليكريا. وتقع عند كاليدون بحيرة كبيرة وغنية بالأسماك يملكها المستوطنون الرومان الذين يعيشون في باترا.

22- وبحسب أبوللودوروس أن في أعماق البلاد قبيلة تدعى قبيلة الإريسيخيين التي ذكرها ألكمان:

ليس الرجل إريسيخياً، ولا راعياً
بل من مرتفعات الساردية...

(مقطع 24، بيرغك)

وكانت أولين تقع في إيثوليا، وأولين هذه مدينة ذكرها هوميروس في «السجلّ الإيثولي»؛ ولم يبق من هذه المدينة سوى آثار قرب بليفرون عند سفوح أراكينثوس. وغير بعيد كانت تقع ليسيماخيا (التي اندثرت بدورها)؛ وكانت هذه تقع على البحيرة التي تدعى الآن ليسيماخيا، وكانت تدعى في الأزمنة الغابرة هيدرا، وهي تقع بين بليفرون ومدينة إرسينويا. وكانت هذه من قبل مستوطنة صغيرة تدعى كونوبا، ولكنّ إرسينويا زوجة بطليموس الثاني وأخته، حوّلتها إلى مدينة، وقد جاء موقعها ملائماً عند معابر أخيلوي تقريباً. وما حصل لبيلينا، حصل ما يشبهه لأُولين أيضاً. فعندما يتحدّث

هوميروس عن كاليدون «الشاهقة العلوّ»[33]، و«الصخرية»[34]، ينبغي أن ننسب هذا إلى البلاد كلّها، وكما كنت قد قلت سابقاً[35]، فإن هذه البلاد تنقسم إلى قسمين: القسم الصخري (أو إيبيكتيتوس)[36]، وينسبونه إلى كاليدون، والقسم السهلي، وينسبونه إلى بليفرون.

23- وفي الوقت الراهن أنهكت الحروب المتواصلة وأضعفت الأكارنانيين والإيثوليين (كما هي حال كثير من القبائل). ولكنّ الإيثوليين ومعهم الأكارنانيون صمدوا طويلاً في الدفاع عن استقلالهم ضدّ المقدونيين وسواهم من الإغريق الآخرين، ثمّ ضدّ الرومان مؤخّراً. وبما أن هوميروس والشعراء الآخرين، ومعهم المؤرّخون، غالباً ما يأتون على ذكرهم بصيغ واضحة ومتطابقة أحياناً، وبكلمات مبهمة أحياناً أخرى (وهذا ما يظهر فيما قلته عنهم سابقاً)، فإن هذا يقتضي منّي أن أضيف شيئاً ما من الروايات الأقدم التي لها طابع القصص الأولى أو التي تثير الشك.

24- فأنا كنت قد قلت عن أكارنانيا مثلاً، أن لايرتس قد امتلكها، وكذلك فعل الكيثاليون. وقد أدلى كثير من الكتّاب بدلوه عمّن كان سكّان هذه البلاد السابقين، ولكن، بما أن أخبارهم وعلى الرّغم من أنها متضارب بعضها مع بعض، إلاّ أنها تحظى بانتشار واسع، فإنه يبقى عليّ أن أقول كلمتي الحاسمة بهذا الصدد. فبحسب قولهم، إن التافوسيين وكذلك التيليبويون عاشوا فيما مضى في أكارنانيا، وأن قائدهم، هو كيثالوس الذي جعل أمفتريون منه سيّد الجزر الواقعة عند تافوس، قد حكم هذه البلاد وساد عليها. ولذلك أخذت الأساطير تنسب إليه أنه أوّل من نفّذ القفزة الأولى من أعلى ليفكاتا، وهي القفزة التي غدت بعد ذلك تقليداً، كما كنت قد قلت سابقاً[37]. ولكنّ هوميروس لا يقول، إن التافوسيين حكموا الأكارنانيين قبل مجيء الكيثاليين ولايرتس إلى هنا؛ وما قاله هو فقط إنهم كانوا أصدقاء الإيثاكيين، وعليه فإنهم إمّا لم يسودوا على هذه المناطق البتة، أو إنهم تنازلوا عن البلاد طوعاً للإيثاكيين، وإما إنهم عاشوا هناك معهم بصفتهم مستوطنين. ويبدو أن مستعمرين من لاكيديمون قد استوطنوا في أكارنانيا: إيكاريوس، والد بنيلوبي ومرافقوه. ففي «الأوذيسا» يظهر إيكاريوس وأخوة بنيلوبي وهم على قيد الحياة بعد:

إنهم[38] يخشون الذهاب إلى بيت إيكاريوس
وكأن الشيخ لم يعطها، وهي التي كان مهرها كبيراً،
زوجة برضاه وموافقته.

(*الأوذيسا* II، 52)

obeikandi.com

وعن أخوتها يقول الشاعر:

فوالدها وأخوتها يحضّانها على الزواج من إيفريماخوس.

(*الأوذيسا* XV، 16)

والحقيقة أنه من المستحيل أن يكون هؤلاء قد عاشوا في لاكيديمون (وإلاّ لما نزل تيلماخ في بيت منيلايوس عندما جاء إلى لاكيديمون)، كما أننا لا نعرف لهم موطناً آخر كانوا يعيشون فيه. فما يروى، هو أن تينداروس وأخاه إيكاريوس قد جاءا إلى ثيستيوس سيّد البليفرونيين، بعد أن طردهما هيبوكوونتس من وطنهما الأم، وساعداه في الاستيلاء على منطقة شاسعة تقع على الضّفّة الأخرى لنهر أخيلوي، شريطة أن يكون لهما شطر منها. ولكنّ تينداروس عاد إلى دياره بعد أن تزوّج ليدا ابنة ثيستيوس؛ أمّا إيكاريوس فقد بقي مالكاً لشطر من أكارنانيا، وأنجب بنيلوبي وأخوتها من بوليكاستا ابنة ليغييوس. وأنا كنت قد قلت سابقاً[39]، إنّ الأكارنانيين قد ورد ذكرهم في «سجلّ السفن»، بين الذين شاركوا في الحملة على إيليون، وقد دعوهم في غضون ذلك «بأولئك الذين يعيشون على الشاطئ»[40]،

في الأرض الكبرى وعلى الشاطئ المقابل

(*الإلياذا* II، 635)

وعندئذٍ لم يكن البرّ قد دعي أكارنانيا بعد، ولم يكن الساحل قد دعي ليفكادا.

25- أمّا إيثور فإنه على الضدّ من هذا يؤكّد، أنهم لم يشاركوا في الحملة، فهو يقول، إن ألكيميون بن أمفيارايوس شنّ حملة مع ديوميدس والإيبيغونيين الآخرين، وبعد حرب ظافرة مع الطيبيين انضمّ إلى ديوميدس وأنزلا معاً العقاب بأعداء إينياس. وبعد أن أعطى ديوميدس وإينياس إيثوليا، اجتاح أكارنانيا وأخضعها. ثمّ يواصل إيثور روايته قائلاً: في تلك الأثناء كان آغاممنون قد هاجم الأرغيفيانيين ولم يجد صعوبة تذكر في الانتصار عليهم، لأنّ أكثرهم كان قد لحق بديوميدس. بيد أنه بعد أن مضى وقت قليل، وعندما شنت الحملة على طروادا، خشي آغاممنون من أن يستغلّ ديوميدس وأنصاره مشاركته في الحملة وغيابه عن الديار، فيعودون بالقوات (وقد وصلت إلى آغاممنون فعلاً، أخبار عن اجتماع أعداد كبيرة من القوات لدى ديوميدس)، ويسترد حقه الشرعي بالسلطة، لأنّ ديوميدس كان الوريث الشرعي لعرش أدراستوس، وألكيميون الوريث الشرعي لوالده، وإذ أخذ آغاممنون هذا كلّه بعين الحسبان، دعاهم ليعيد إليهم آرغوس وطلب منهم أن يشاركوا في الحرب على طروادا. فسمح ديوميدس لنفسه أن يستدرج إلى الحرب، أمّا الكيميون فقد رفض الطلب ساخطاً.

ولـذلك كـان الأكـارنـانيون وحـدهم الـذين لم يشـاركوا في حملـة الإغريـق. وإذ التـزم الأكارنانيون بهذه الرواية، نجحـوا علـى مـا يبـدو في خداع الرومـان وحصلوا منهم علـى استقلالهم مؤكّدين أنهـم هـم وحـدهم الـذي لم يشـاركوا في الحـرب ضـدّ أسـلافهم. والحقيقة أن ذكرهم لم يرد لا في السجلّ الإيثولي»[41] ولا في أي مكـان آخـر، حتّـى في ملحمتي هوميروس لا يرد لهم اسم قط.

26- وعلى هذا النحـو يقـدّم إيثـور أكـارنانيـا قائمـة قبـل حـرب طـروادا وخاضعة لحكم ألكميون، كما ينسب إلى هذا الأخير بناء آرغوس الأمفيلوخية؛ وبحسب قوله، إن أكـارنانيا دعيت باسم أكـارنان ابن ألكيميون، وإنّ الأمفيلوخيين دعـوا باسـم أخيـه أمفيلوخ؛ ولذلك فإن رواية إيثـور تعـدّ مـن بـين الروايـات الـتي تنـاقض مـا أورده هـوميروس. ويـروي ثوكيديـدس[42] والكتّـاب الآخـرون، أن أمفيلـوخ بعـد عودتـه مـن تحـت أسـوار طروادا، لم يكن راضياً عن الأحوال في آرغوس، واستقرّ في هذه البلاد، وبحسب رواية بعضهم إنه جاء إلى هنا بصفته وريثاً شرعياً لسلطة أخيه، بينما يرى آخـرون إنـه جـاء إلى هنا بناء على أسس أخرى. إن هذا هو ما رأيت ضرورياً أن أرويه عن أكـارنانيا. وهـا أنـذا أنقـل الآن عنهـا أخبـاراً عامّـة بمـا يتوافـق وتداخلـها مـع تـاريخ الإيثـوليين، وسـوف أنقلـها بحسب توالي أحداث تاريخ هؤلاء، وأنا أفعل هذا لأنني أرى أنه من الضـروري ضـمّها إلى ما قيل سابقاً.

الفصل الثالث

1- يرى فريق من الكتّاب أن الكوريتيين هم أكارنانيون، بينما يرى فريق آخـر أنهم إيثوليون؛ ويقول بعضهم إنهم خرجـوا مـن كـريت، ويقـول آخـرون إنهـم مـن إيبيـوس. وبمــا أن هــوميروس يــذكرهم، فإنــه مــن المستحســن أن نــاقش أخبــاره عــنهم أولاً. ويفترضون أنّ الشّاعر يرى إنهم على الأغلب إيثوليون أكثـر منهم أكـارنـانيين، هـذا إذا كـانوا فعلاً أبناء بورثاونوس:

آغريوس وميلاس، وثالثهما كان إينياس الفارس

(الإلياذا XIV، 117)

سكنوا بليفرون، والأرض الخصبة، وكاليدون الجبلية.

(الإلياذا XIV، 116)

إنهمـا مـدينتان إيثوليتـان ورد اسماهمـا في «السـجلّ الإيثـولي». وحتّـى بحسـب هوميروس من الواضح أن الكوريتيين عاشوا في بليفرون، وعليه فإنهم يجب أن يكونـوا

إيثوليين. أمّا الكتّاب الذين يعتمدون وجهة النظر المغايرة، فإن أسلوب التعبير عند هوميروس قادهم إلى الوقوع في الخطأ. يقول هوميروس:

كان النزاع بين الكوريتيين والإيثوليين المولعين بالنزاع،
حول مدينة كاليدون.

(الإلياذا IX، 529)

ويتابع هؤلاء قائلين، إنه لم يكن بمقدور الشّاعر أن يقول تماماً هكذا: «لقد حارب البيوتيون والطيبيون بعضهم بعضاً» أو حارب «الآرغفيانيون والبيلوبونيزيون» بعضهم بعضاً. وأنا كنت قد أشرت من قبل[1] إلى أن أسلوب التعبير هذا أسلوب معتاد ليس لدى هوميروس وحده، بل غالباً ما يستخدمه الشعراء الآخرون أيضاً. وتفسيرنا هذا يمكن على هذا النحو تبريره بسهولة. ولكن فليشرح لنا الكتّاب الآخرون كيف استطاع هوميروس أن يضع البليفرونيين في «السجلّ الإيثولي»، لو لم يكن هؤلاء من أبناء قبيلتهم، أي من قبيلة الإيثوليين.

2- وبحسب إيثور أن الإيثوليين كانوا قبيلة لم تخضع يوماً لأيّ شعب آخر؛ فبلادهم لم تتعرّض لغزو أو نهب منذ الأزمنة الغابرة بسبب وعورة طبيعتها وامتلاك سكّانها لفنون القتال. ويضيف إيثور بعد ذلك، إن الكوريتيين امتلكوا البلاد كلّها أولاً؛ ولكن بعد أن جاء إيثول ابن إينديميون من إيليدا وهزمهم في الحرب، أُرغم الكوريتيون على أن يتراجعوا إلى المنطقة التي تدعى الآن أكارنانيا؛ وعاد الإيثوليون أدراجهم ومعهم الإيبيون وأسّسوا أقدم المدن في إيثوليا؛ وبعد انقضاء عشرة أجيال، استعمر أوكسيل ابن هرمون إيليدا، وهو الذي عبر من إيثوليا إلى البيلوبونيز. وللبرهان على هذا يسوق إيثور نصّي نقشين: أحدهما في ثيرما في إيثوليا (حيث معمول عندهم بالتقليد الأبوي لاختيار الأشخاص المسؤولين وكبار الموظفين)، وقد حفروا نصّ هذا النقش على قاعدة تمثال إيثول:

هذا الذي نظّم الأرض عند لجّة ألثيوس المنبت
وكان في يوم ما الجار القريب لسباقات الخيل الأوليمبية،
إيثول ابن إينديميون. فكرّس الإيثوليون هذا
التمثال له، لكي ينظر إليهم بعين البسالة.

ويقع النقش الثاني في ساحة سوق الإيليين على تمثال أوكسيل:

هذا للأسلاف الأوائل، حينما ترك إيثول الشعب،
وامتلك أرض الكوريتيين المجيدة بالرمح الرهيب.

وعشيرة الحفيد العاشر نفسه، ابن هيمون، أوكسيل
الباسل، أسّس في زمن ما هذه المدينة.

3- وعلى هذا النحو يبيّن إيثور بهذين النقشين صلة القرابة بين الإيليين والإيثوليين، لا لأنّ النقشين يثبتان معاً صلة القرابة بين القبيلتين وحسب، إنّما لأنهما من منشئين متبادلين. وعلى هذا الأساس يوفّق إيثور في إظهار خطأ الادعاء بأن الإيليين هم فعلاً مستعمرو الإيثوليين، وليس الإيثوليون مستعمري الإيليين. ففي الحالة المعطاة يبيّن إيثور بوضوح التناقض نفسه الذي ورد في وصفه وزعمه الذي كنت قد أشرت إليه[2] عنده فيما يخصّ موْحى دلفي. وواقع الأمر أنه بعد أن زعم إيثور أن إيثوليا لم تتعرّض للغزو منذ الأزمنة الغابرة، وبعد أن ذكر أن الكوريتيين امتلكوا هذه الأرض أولاً، كان ينبغي عليه وفق ما قيل، أن يضيف أيضاً، إن الكوريتيين حافظوا على ملكيتهم لهذه الأرض حتّى زمنه، لأنه في هذه الحالة فقط يمكن أن تدعى البلاد بحق بالبلاد «التي لم تتعرّض لغزو»، ولم تخضع يوماً لسيادة الغريب. ولكنّ إيثور الذي نسي وعده[3] تماماً، لم يضف هذا بل طرح زعماً مناقضاً مفاده أنه بعد وصول إيثور من إيليدا أو قهره الكوريتيين في الحرب، نأى هؤلاء وأقاموا منعزلين في أكارنانيا. فأيّ دليل على تعرّض البلاد للغزو وهزيمتها في الحرب أكثر وضوحاً من هجرة سكّانها منها؟ وهذا ما يشير إليه نقش عند الإيليين. فالنقش يقول، إن إيثول،

امتلك أرض الكوريتيين المجيدة بالرمح الرهيب.

4- وقد يعترض أحدهم على هذا فيقول: إن إيثور يريد أن يقول، إن إيثوليا بقيت «سالمة» منذ أن حملت اسمها هذا، أي بعد وصول إيثور إليها. ولكنّ إيثور يجرّد حتّى هذا الزعم من أسسه، عندما يزعم لاحقاً أن الفريق الأكبر من الناس الذين بقوا بين الإيثوليين كانوا من الإيبيين تحديداً؛ وفيما بعد، حينما نزح الإيثوليون مع البيوتيين من تساليا، واختلطوا مع هؤلاء الأخيرين، استولوا على هذه البلاد بالشراكة مع البيوتيين. وهكذا فإنه من المحتمل أن يكون هؤلاء، بعد أن هاجموا بلاداً غريبة، قد عاشوا فيها من غير حرب مع سكّانها السابقين الذين لم يكونوا في حاجة إلى هذا التعايش البتة. وإذا لم يكن مثل هذا الاحتمال قائماً، فهل يمكن أن يكون الذين هزموا بقوّة السلاح قد وجدوا أنفسهم في علاقات متباينة مع المنتصرين؟ فما الذي يمكن أن يكونه مثل هذا «الاجتياح» إن لم يكن هزيمة بقوة السلاح؟ يقول أبوللودوروس، إنه وفق التاريخ أن العمالقة خرجوا من بيوتيا واستوطنوا مع الإيثوليين. أمّا إيثور فظنّاً منه أنه عرض حججه كلّها عرضاً موفقاً، يضيف في الختام قائلاً: «إنني أخضع هذه المسائل وأمثالها عادة،

للتمحيص الدقيق في كلّ مرّة أصادف فيها أمراً ما مشكوكاً فيه تماماً، أو قائماً على تصوّر خاطئ».

5- وعلى الرغم من هذا كلّه يبقى إيثور، هو الأفضل بين الآخرين. حتّى بوليبيوس[4] نفسه، الذي يمدحه بحماس يؤكّد، أنّ إيفدوكس[5] قدّم عرضاً رائعاً عن التاريخ الإغريقي، لكنّ إيثور قدم أفضل رواية عن تأسيس المدن، وصلات القرابة، والهجرات، والمؤسّسين الأوائل. ثمّ يقول: «أمّا أنا فإنني لن أعكس سوى الحالة المعاصرة للأشياء، وسوف أتحدّث عن مواقع الأماكن، كما عن المسافات التي تفصل بينها؛ فهذه المادّة، هي الأكثر ملاءمة للكوروغرافيا». ولا شك في أنك أنت يابوليبيوس الذي تورد «آراء شائعة»[6] عن المسافات عندما تتعامل مع بلدان خارج اليونان، وفي داخل الأراضي اليونانية نفسها، فإنه يجب عليك أن تبرّئ ساحتك أمام بوسيدونيوس وأبوللودوروس، وكذلك أمام بعض الكتّاب الآخرين. ولذلك فإنه على القارئ أن يعذرني، وألاّ ينفعل إذا ما اقترفت بعض الهفوات (لأني آخذ أكثر أخباري التاريخية عن مثل هؤلاء الكتّاب)، بل يرضى عني لأني أعرض أكثر الحقائق التاريخية عرضاً أفضل من عرض الآخرين، أو أملأ ما سهوا عنه بسبب عدم اطلاعهم عليه.

6- وثمّة معطيات عن الكوريتيين في سياق الروايات الآتية أيضاً، وأحياناً ما تكون لهذه صلة قريبة جدّاً بتاريخ الإيثوليين والأكارنانيين، وأحياناً أخرى تكون أكثر ابتعاداً عنه. والصلة الأقرب إلى التاريخ هي تحديداً للروايات التي من نوع الذي يشبه ما عرضته سابقاً وقلت فيه، إن البلاد التي يدعونها الآن إيثوليا استوطنها الكوريتيون، وإن الإيثوليين الذين جاؤوا مع إيثور طردوهم منها إلى أكارنانيا. ومثلها أيضاً الروايات التي تقول، إنه في الوقت الذي كان يعيش فيه الكوريتيون في بليفرون (التي كانت تدعى حينئذٍ كوريتيدا)، اجتاح الإيثوليون هذه البلاد فاستولوا عليها وطردوا سكّانها السابقين منها. وبحسب أرخيماخ الإيبيوسي أن الكوريتيين سكنوا خلكيدا أولاً، ولكن بما أن أعداءهم أمسكوا بهم من الأمام بشعر رؤوسهم، أثناء الحروب المتواصلة التي أشعلها النزاع على سهل ليلانس، فقد شرع الكوريتيون يحلقون شعر رؤوسهم من الأمام ويطلقونه من الخلف. ولذلك دعوهم «كوريتيين»، والكلمة مشتقة من كلمة «جزّ»[7]؛ فنزحوا إلى إيثوليا وسكنوا فيها، وبعد أن استولوا على المنطقة المحيطة ببليفرون، أطلقوا على سكّان الضفّة الأخرى لنهر أخيلوي اسم الأكارنانيين، لأنّ هؤلاء لم يكونوا يحلقون شعر رؤوسهم[8]. بينما يجزم بعضهم بالعكس تماماً، ويؤكّدون أن القبيلتين أخذتا اسميهما من اسمي بطلين؛ ويزعم

بعضهم الآخر أن الكوريتيين أخذوا اسمهم من جبل كوريوس الذي يعلو فوق بليفرون، وأن هـذه كانـت واحـدة مـن القبائـل الإيثوليـة، مثلـها مثـل الأوثـيين، والآغـريين، واليوريتانيين، وبعض القبائل الأخرى. ولكـن، كمـا أشـرت سـابقاً[9]، فعندما قسمت إيثوليا إلى شطرين وقعت المنطقة المحيطة بكاليدون، كما يقولون، تحت حكم إينياس، بينما امتلك أبناء بورثاونوس شطراً كبيراً من بليفرونيا، خاصة آغريوس وسلالته، إذا هم فعلاً:

سكنوا بليفرون، والأرض الخصبة، وكاليدون الجبلية.

(الإلياذا XIV، 116)

ثمّ امتلك بليفرونيا ثيستوس صهر إينياس ووالد ألثيا، وزعيم الكورياتيين. وعندما اندلعت الحرب بين أبناء ثيستوس من جهة، وإينياس وميلياغروس من جهة أخرى

(على رأس الخنزير ذي الناب، وجلده الكثيف الشعر،

(الإلياذا IX، 548)

كما قال الشّاعر آخذاً بأسطورة الخنزير البري، ولكن بسبب قطعة الأرض الصغيرة على أغلب الظنّ)، فإنّ

النزاع كان بين الكوريتيين والإيثوليين المولعين بالنزاع.

(الإلياذا IX، 529)

هذه هي الروايات التي لها أقرب صلات بتاريخ الإيثوليين والأكارنانيين.

7- أمّا الروايات التي صلتها بهذه المادّة أبعد (وبسبب تماثل الأسماء فإن المؤرّخين يصلون بعضها ببعض)، خاصة تلك التي على الرغم من أنها تدعى «القصة الكوريتية» و«قصة عن الكوريتيين» (تماماً كما لو كانت هذه تمثّل تاريخ الكوريتيين الذين عاشوا في إيثوليا وأكارنانيا)، فإنها لا تتميّز عن هذه القصص وحسب، إنّما هي أقرب إلى خرافات الساتير، والسيلينيس، والباخوسيات، والتيتير[10]. فعلى حدّ قول أولئك الكتّاب الذين يروون روايات من تاريخ قبرص وفريجيا، أن الكوريتيين، هم كائنات عفريتية، مثلها مثل هذه الكائنات المذكورة، أو إنهم أرواح من خدم الآلهة؛ وتتشابك هذه الروايات عندهم في غضون ذلك مع القصص التي تروى عن طقوس مقدّسة شائعة، هي قصص صوفية جزئياً، وتتّصل في جزئها الآخر بتربية زيوس الطفل في كريت، أو بالمسرحيات الدينية الطقوسية التي كانت تقام على شرف والدة الآلهة في فريجيا ومنطقة إيدّا الطروادية. ويظهر في هذه الروايات تنوّع لا أهمية له؛ ففي بعضها مثلاً، يدغم الكوريبانتي، والكابيري، والداكتيلي الإيدّيون، والتيلخينيون بالكوريتيين،

obeikandi.com

وفي بعضها الآخر توصف هذه القبائل بأنها قبائل تربط بينها صلة النسب مع بعض الاختلاف البسيط لبعضها عن بعضها الآخر. وقصارى القول، إنهم يرون فيها كلّها أناساً ما ذوي إلهام إلهي أصابهم الجنون الباخوسي، وفي صورة خدم الآلهة لدى تأدية الطقوس المقدّسة يدبّون الخوف في قلوب الناس برقصهم القتالي الذي يؤدّونه بكامل سلاحهم تحت صخب صوت الصنج، وقرع الطبول، وقعقعة الأسلحة، وبمرافقة المزمار، وأصوات العويل. ولذلك يرون في هذه الطقوس المقدّسة طقوساً بينها وبين طقوس الساموتراقيين في ليمنوس وبعض المناطق الأخرى صلة نسب؛ لأنّ خدم الآلهة يدعون هناك بالاسم عينه. وعلى أيّ حال، فإن أيّ بحث في هذه الشأن يندرج في ميدان التعاليم المكرّسة للآلهة وليست غريبة عن تأمّل الفيلسوف.

8- ولكن، بما أن المؤرّخين أنفسهم، وبسبب تطابق أسماء الكوريتيين، قارنوا بين مواد غير متشابهة، فإنني رغبت بدوري أن أتحدّث عنها نكوصاً، بتفصيل أكثر، فأضيف إلى التاريخ قصة ملائمة عن بنيتهم الفيزيائية. وعلى وجه العموم فإن بعض المؤرّخين يرغبون في أن يقاربوا سماتهم الفيزيائية، وربّما يكون لهم في هذا نصيب محدّد من الواقعية. فهم يزعمون على سبيل المثال، أن الكوريتيين الإيتوليين أخذوا اسمهم هذا، لأنهم كانوا «كالبنات»[11]، يرتدون فساتين؛ بيد أن هذا كان عند الإغريق شيئاً ما يشبه الموضة؛ فالإيونيون لقّبوا «بذوي الأردية الطويلة»[12]؛ أمّا جنود ليونيد فقد كانوا يخرجون إلى القتال «بشعر مسرّح»[13]، ولذلك يروى أن الفرس أبدوا احتقارهم لهم، مع أن بسالتهم أثارت دهشة هؤلاء. وعلى وجه العموم فإن فنّ العناية بالشعر يتلخص في تغذيته وقصقصته، وهي مهارة يتميّز بها الفتيان والفتيات على حدّ سواء[14]؛ ولذلك ثمّة كثير من الوسائل التي تمكّن بسهولة ويسر من تحديد المغزى الأول لكلمة «كوريتيين». ومن جهة أخرى يرجّح أن تكون الرقصة القتالية التي كان يؤدّيها بادئ ذي بدء أشخاص بتسريحة وملابس مماثلة (وكان هؤلاء يدعون كوريتيين)، قد أعطت المسوّغ للذين يتمتّعون بروح قتالية أكثر من الآخرين، ويعيشون حياتهم من غير أن يفارقوا السلاح قط، أن يتسمّوا باسم الكوريتيين نفسه: وأنا أعني هنا الكوريتيين في إيبيوس، وإيتوليا، وفي أكارنانيا أيضاً. وهوميروس يدعو المقاتلين الشبان بهذا الاسم:

أنت الذي انتقيت من معسكر الآخيين أنبل الشبان[15]**،**
وكلّ الهدايا التي تعهّدنا بالأمس أن نقدّمها لأخيلليس،
ائتني بها من السفينة السريعة...

(الإلياذا XIX، 193)

وفي مكان آخر:

... وفي الإثر حمل الشبّان[16] الهدايا الأخرى.

(الإلياذا XIX، 248)

هذه كانت معلوماتي عن اشتقاق اسم الكوريتيين. وعلى أيّ حال فإن الرقصة القتالية كانت رقصة الجنود. وهذا ما تؤكّده بيرّيخا[17]، وكذلك بيرّيخوس الذي يعدّونه مبتكر هذا التمرين للشبان، وواضع الإرشادات والتعليمات في فنّ القتال.

9- ولنر الآن كيف تتوافق هذه الأسماء كلّها والمادّة نفسها، وما هي عناصر التعاليم المكرّسة للآلهة، التي يتضمنها تاريخها. فالإغريق والبرابرة يشتركون في تقليد إقامة الطقوس المقدّسة وربطها باستراحة الأعياد؛ فبعض الطقوس يؤدى بحماس ديني، وبعضها الآخر من غيره؛ وفي بعض الأحيان بمرافقة موسيقية، وفي بعضها الآخر من غير موسيقا؛ ويكون بعض الطقوس سرّياً، بينما بعضها الآخر مفتوحاً. وفي الأحوال كلّها، فإن طابع هذه الطقوس تحدّده الطبيعة نفسها. فالاستراحة، تصرّف العقل عن الاهتمام بالشؤون البشرية وتوجه العقل المتحرّر من شؤون الدنيا فعلاً، نحو ما هو إلهي؛ ثانياً، إن الحماس الإلهي يقوم على أغلب الظنّ، على أساس إلهام إلهي ما، وهو قريب خاصّة إلى من وُهب نعمة التنبؤ، ثالثاً، إن الحرمة السرية التي للطقوس المقدّسة تضفي مزيداً من القداسة على ما هو إلهي، لأنها تحاكي الطبيعة الإلهية التي لا تدركها الأحاسيس البشرية؛ رابعاً وأخيراً، إن الموسيقا التي ترافق الرقصة، وكذلك الإيقاع والنغمة، تقودنا إلى الاتصال مع الإله إن عبر المتعة التي تثيرها أو عبر أدائها الفني، وهو ما يحصل للسبب التالي. فعلى الرّغم من صحّة المقولة التالية: إن الناس يشبهون الآلهة أكثر ما يشبهونها، عندما يفعلون الخير للآخرين، بيد أنه كان من الأصحّ لو قيل: عندما يكونون سعداء. ومثل هذه السعادة تخلقها الأفراح، والاحتفالات، وممارسة الفلسفة والموسيقا. وإذا ما تعرّضت الموسيقا للتشويه بدرجة ما، عندما يوجّه الموسيقيون مهاراتهم نحو المتع الحسّية في المآدب، والرقص، والمشاهد التي تؤدّى وما إلى ذلك من العروض، فينبغي ألاّ تلام الموسيقا على ذلك، إنّما من الأفضل أن نتقصّى محتوى التربية القائمة على أساسها.

10- ولهذا دعا أفلاطون وقبله الفيثاغورسيون الفلسفة موسيقا[18] وأكّدوا أن الكون تشكّل وفق قوانين الهارمونيا[19]. ورأوا في كلّ نوع من الموسيقا إبداعاً أبدعه الآلهة. ولذلك فالميوزات إلهات وأبوللون رائد الميوزات، والشعر كلّه تمجيد للآلهة. وعلى نحو مماثل ينسب هؤلاء إلى الموسيقي تشكيل القيم الأخلاقية، لأنهم يرون أن كلّ ما

يخـدم تقـويم العقـل، قريـب مـن الآلهـة. لقـد نسـب أكثـر الإغريـق إلى ديونيسـيوس، وأبوللـون، وهيكـاتي، والميوزات، وقبـل كـلّ شـيء إلى ديمـيترا شتّى أنـواع الاحتفـالات السـرّية التهتكيـة، والباخوسـية، والجماعيـة، كمـا نسـبوا إلـيهم الأصـل الصـوفي في احتفالات التكـريس؛ وهـم لا يـدعون ديونيسـيوس وحـده باكخوس، إنّمـا يطلقـون هـذا الاسـم علـى العفريـت- القائـد مسـرحيات ديمـيترا السـرية أيضـاً. إن حمـل الأغصـان، والرقصات الجماعية، والتكـريس، هـي العناصر المشتركة في عبادات هؤلاء الآلهة. أمّا أبوللون والميوزات، فإن الميوزات يقفن على رأس الجوقات، وأبوللون لا يقود هـذه الأخيرة وحسب، بل تمتـدّ قيادتـه لتشـمل فـن التنبـؤ أيضـاً. وخـدم الميـوزات، هـم النـاس المتنـورون المثقفون كلّهم، خاصة الموسيقيين، وهم خدم أبوللـون أيضـاً، وكـذلك الـذين يمارسـون فنّ التنبؤ، أمّا خدم ديميترا فهم حاملو المشـاعل والإروثانتس[20]؛ وخـدم ديونيسـيوس هـم السـيلينيس، والسـاتير، والباخوسـيات، وكـذلك اللـيني، والثيـي، والميمـاللوني، والنائيدس، والحوريات، وما يدعى تيتيرس.

11- ومـا عـدا هـذه الطقـوس المقدّسـة، كـانوا يـؤدّون في كـريت طقوسـاً خاصـة أخـرى علـى شـرف زيـوس ترافقهـا احتفـالات تهتكيـة؛ وكـان يشـارك فيهـا خـدم هـم السـاتيري في عبادة ديونيسيوس. وكانوا يـدعون هـؤلاء الخـدم كـوريتيين؛ وكـان هـؤلاء شباباً مختارين يؤدون تمارين وهم يرتدون الـدروع، وكانـت تمـارينهم هـذه تترافـق بتأديـة رقصات يمثلـون بهـا القصـة الميثولوجيـة لـولادة زيـوس؛ وكـانوا يصـوّرون في هـذا العـرض كـرونـوس الـذي يلتهم أولاده لحظـة ولادتهـم عـادة، وريّـا وهـي مشـغولة بإخفـاء مولودهـا كـي تبعـده قـدر الإمكـان لتنقـذه. ولتحقيـق مسـعاها هـذا، يقولـون، إنهـا اسـتعانت بـالكوريتيين الـذين كـان ينبغـي أن يحيطـوا بالإلهة ومعهـم الطبـول ومختلـف أنـواع آلات الصخب الأخرى، لكـي يخيفوا كـرونوس ويخطفـون وليـده خلسـة عنـه. وحسـب الروايـة أن هؤلاء هم الذين ربّوا زيوس الطفل بعناية فائقة. ولذلك اسـتحقّ الكـوريتيـون مثـل هـذا الاسم المشرّف، إمّا لأنهـم قـدّموا هـذه الخدمـة وهـم أنفسـهم فتيـة، أو لأنهـم ربّـوا زيـوس الطفل (يورد الكتّاب التفسيرين معاً). إن هـؤلاء هـم بمثابـة السـاتيري لـدى زيـوس. وعلـى هذا النحو يبدو الأمر عند الإغريق في العبادات التهتكية.

12- وفيما يخصّ البيريكينتيين، وهم إحدى القبائل الفريجية، بل فيمـا يخـصّ الفريجيين على وجه العموم، وكذلك الطرواديين الذين عاشوا في ضواحي إيدا، فـإنهم يعبدون ريّـا، ويقيمـون احتفـالاتهم، ويـدعونها والـدة الآلهـة، والأغديّـة، والإلهـة الفريجيـة العظمى؛ كمـا يـدعونها تبعـاً لأسمـاء الأمـاكن: الإيدّيـة، والدينديمينيـة، والسـيبيلينية،

والبيسينونيتدا، وكيبلاّ، وكيبيبا[21]. ويدعو الإغريق خدمها بالاسم عينه: كوريتيين؛ بيد أنهم لا يقتبسون هذا الاسم من دائرة القصص الميثولوجية نفسها[22]، لكنّهم يرون فيهم ضرباً من ضروب الأرواح التي تشبه الساتير. فيدعونهم كوريبانتي.

13- ويشهد الشعراء شهادات لصالح هذه الافتراضات. فبينداروس على سبيل المثال يقول في إحدى مدائحه التي يبدؤها بقوله:

من قبل كانت تطول[23] كالحبل أغنية الديفيرامبي،

وإذ يتذكّر الأناشيد القديمة والحديثة التي أُنشدتْ على شرف ديونيسيوس، لينتقل منها ويقول:

لك نبدأ المطلع، أيّتها الأمّ العظيمة،
طبول الكيمفاليين مستعدّة وفي وسطهم
صخب الطنين والمشعل، وشجر الصنوبر
الأصفر الذي يضيء.

(هرقل أم كيربيربوس، إي. بيوسه)

ويشير الشّاعر هنا إلى وحدة الطقوس التي أنشأها الإغريق في عبادة ديونيسيوس، والطقوس الفريجية في عبادة والدة الآلهة، كاشفاً في أثناء ذلك عن صلة القرابة بين الشعبين، والتقارب نفسه يورده يوريبيدس في «الباخوسيات» إذ يصل بين العادات الفريجية والليدية استناداً إلى تشابهها.

وأنتم، الذين تركتم تمولوس معي،
وأنتنّ يا ربيبات ليديا وصديقاتها
في الطريق والسلطة، أنتم الآن ترفعون
الدفّ فوق الرأس الفريجية،
تقدمة لريّا أمي أيضاً...

ثمّ يقول:

أوه، كم أنت سعيد أيها الفاني،
إذا ما تعايشت بسلام مع الآلهة
فتدرك كنه أسرارها،
إذا ما ابتهجت فوق المرتفعات
بأفراح باخوس النقية
وملأت روحك الوجلة،

obeikandl.com

كم ستكون سعيداً لو انخرطت
في احتفالات الأمّ كيبيلاّ؛
لو هززت الصولجان،
باللبلاب الأخضر ستتوّج،
وستخدم ديونيسيوس.
إلى الأمام أيتها الباخوسيات إلى الأمام!
فأنتنّ تقدن الإله وابن الإله
ديونيسيوس إلى البيت!
من الجبال الفريجية إلى ربوع هلاّدا الشاسعة.

(الباخوسيات 55، 72)

وبعد ذلك يربط الشّاعر في الأبيات الآتية بين الطقوس الكريتية والفريجية:

مبكى كريت المقدّس،
مأوى الكوريتيين الكئيب،
شاهدت مولد زيوس أنت،
بعرف ثلاثي على الخوذة.
هناك طوق الكوريبانتي[24]
مرتدياً جلداً عثروا عليه.
بدأ الدفّ يعوي بوحشية:
أراد أن يذوب في أنغام القيثارات
الفريجية العذبة؛ قدّموا الدفّ لريّا،
لكنّ الباخوسيات شرعن ينشدن على وقع عويله.
فأعطته ريّا للساتيري:
أصابهم الجلد الرنّان بالجنون.
في التريتيريادس[25] **المقدّسة**
يبهج صوته الجوقات،
وهي التي يحبها ملكنا ديونيسيوس.

وفي «البالاميدا» تقول الجوقة:

ثيسا ابنة ديونيسيوس،
الذي على إيدّا يتعلل مع أمه المحبوبة

على إيقاع دقّ الدفوف.

(مقطع 586، ناؤوك)

14- عنـدما يقـارن الشـعراء بـين سـيلينوس، ومارسـيوس، وأوليميبـوس، ويقدّمونهم كمبتكري القيثارة، فإنهم يضعون بذلك الطقوس الديونيسية مرّة أخرى في علاقة مع الطقوس الفريجية؛ وليس نادراً أن يرغموا أسماء إيدّا وأوليميبوس على أن «تسمع»[26] بغير وضوح كأنهما جبل واحد. والحقيقة أن لإيدّا أربع قمم قرب أنتاندريا، تدعى أوليميبية؛ وهناك الأوليميبوس الميسي الذي يجاور إيدّا، لكنّه لا يندغم به. وفي «بوليكسينا» يصف سوفوكليس منيلايوس يخرج متعجلاً من تحت أسوار طروادا، بينما كان آغاممنون راغباً في أن يتأخر بعض الشيء لكي يسترضي أثينا، ثمّ يقول سوفوكليس على لسان منيلايوس:

لا تغادر الأرض الإيدّية، فهنا

تتجمّع قطعان أوليميبوس، فقدّم ذبيحتك.

(مقطع 47، 9، ناؤوك)

15- لقد ابتكروا أسماء خاصة لأنغام القيثارة، وصخب الصنوج، وطنين الكيمفاليين، وهزيم الدفوف، وصرخات الإعجاب والبهجة، ودقّ الأقدام على الأرض، كما استخدموا بعض الأسماء الأخرى التي دعوا بها خدم الآلهة، والمشاركين في مجموعات الإنشاد، والذين يؤدّون الطقوس المقدّسة، وهذه الأسماء هي: الكابيري، والكوريبانتي، والباني، والساتيري؛ ودعوا الإله باخوس، ودعوا ريّا كيبيلاّ أو كيبيبا ودينديمينا، حسب أماكن عبادتها. كما ينتمي سابازيوس أيضاً إلى عداد الآلهة الفريجية، وهو بطريقة ما ابن والدة [الآلهة]، لأنه أيضاً نقل أسرار ديونيسيوس.

16- وهذه الطقوس تشبهها طقوس الكوتيتي والبينديدي عند التراقيين الذين ظهرت عندهم الطقوس الأورفية أيضاً. ويذكر إيسخيليوس الإلهة كوتيس التي يبجلها الإيدونيون، والآلات الموسيقية التي تستخدم أثناء إقامة احتفالاتها. فهو يقول:

كوتيس، قديسة الأرض الإيدونية،

أنتم يا مالكي الأدوات الجبلية،

ثم يذكر مباشرة خدم ديونيسيوس:

واحد يمسك الناس بيديه - صنعة القطّاع،

يملأ الأغنيات بمهارة أصابعه.

صوته يثير الجنون.

وفي الوقت نفسه يرنّ آخر بكفّتيّ النحاس.

ويقول بعد ذلك:

الأغنية رنّانة تبهج،
ومن مكان ما، من مخبأ ترعد الإيمائيات رهيبة
خوار ثور وجئير،
وصدى الدف كأنه هزيم الرعد
يندفع من مملكة العالم السفلي.

(*الإيدونيون، مقطع* 57، *ناؤوك*)

إن هذه الطقوس تشبه الطقوس الفريجية، ومن المحتمل جدّاً أن تكون قد جاءت إلى هنا من تراقيا، لأنّ الفريجيين أنفسهم نزحوا إلى هنا من تراقيا وحملوها معهم. وبالمقارنة بين ديونيسيوس وليكورغوس الإيدوني، يلمّح الشعراء إلى الطابع المتماثل لهذه الطقوس المقدّسة.

17- وعلى أساس لحن الإيقاع والآلات الموسيقية، يعدّون الموسيقا التراقية كلّها موسيقا آسيوية، وهذا واضح أيضاً من أسماء الأماكن التي عرفت فيها عبادة الميوزات. فبيرييا، وأوليميبوس، وبيمبلا، وليبيثرون كانت في الزمن القديم أماكن وجبال تراقية فعلاً، مع أنها تعود الآن للمقدونيين؛ وكرّس التراقيون الذين سكنوا في بيوتيا، جبل هيليكون للميوزات، وكرّسوا لهنّ أيضاً كهف الحوريات الليبيرثيادس. وعلى النحو نفسه كانوا يدعون الذين كانوا في الأزمنة القديمة يعملون في ميدان الموسيقا، تراقيين: أورفيوس، وموسيوس، وثاميريس؛ ومن هنا أخذ اسمه إيفمولبوس أيضاً. ويعيد الكتّاب الذين كرّسوا آسيا كلّها لديونيسيوس، منشأ القسم الأكبر من الموسيقا إلى هناك. فأحد الكتّاب على سبيل المثال يقول، «ضارباً على القيثارة الآسيوية»، ويدعو آخر المزمار «بيريكينتياً» و«فريجياً»؛ ويحمل بعض الآلات تسميات بربرية: نابلاس، سامبيكا، باربيتوس، ماغاديس، و...

18- لقد أظهر الأثينيون ميلاً دائماً للاقتباس عن الغرباء، إن على وجه الخصوص أو على مستوى عبادات الآلهة الغرباء. فاعتمدوا فعلاً كثرة من الطقوس الأجنبية، الأمر الذي جعل الكتّاب يسخرون منهم في العروض الكوميدية. وهذا يخصّ الطقوس الفريجية والتراقية. فأفلاطون[(27)] مثلاً يذكر البينديدي، ويذكر ديموسفين[(28)] الطقوس الفريجية في معرض انتقاده لوالدة إيسخين وله هو نفسه، لأنه حضر معها عروضاً سرية مقدّسة، وشارك في الموكب الديونيسي وهتف مراراً:

euoi saboi و hýēs áttēs hýes [29]. وتستخدم هذه الكلمات لدى إقامة شعائر خدمة سابازيوس والأم العظمى.

19- وعلاوة على ذلك، فيما يخصّ هذه الأرواح وأسماءها المتنوّعة، يمكننا أن نكتشف أنها لم تدع خدم الآلهة فقط، بل عدّت هي نفسها آلهة. فعلى حدّ قول هسيود مثلاً، إنه كان لهيكاتيروس وابنة فورونيوس خمس بنات:

منهنّ الحوريات الجبليات، إلهات ولدن
وجيل الساتيري التافهين، العاجزين عن العمل،
وجنس الكوريتيين، الآلهة المولعين باللهو والرقص.

(مقطع 198، رجاغ)

ويدعو مؤلّف «الفورونيدس»[30] الكوريتيين «بالزمّارين» و«الفريجيين»؛ بينما يدعوهم مؤلّفون آخرون «بالمولودين من الأرض»، و«حامليّ التروس النحاسية». وهناك من يدعو الكوريبانتي وليس الكوريتيين «بالفريجيين»، فهؤلاء الأخيرون يدعونهم «كريتيين» ويقولون، إن الكريتيين هم أوّل مَنْ حمل الدروع النحاسية في إيبيوس؛ ولذلك دعوهم «خلكيديين»[31]. ويزعم بعضهم أن العمالقة أعطوا ريّا خدماً مسلحين، وأن هؤلاء كانوا هم الكوريبانتي الذين جاؤوا من باكتريانا، بينما يقول آخرون إنهم جاؤوا من كولهيدا. وفي الحكايات الكريتية يدعى الكوريتيون «مطعمي زيوس» و«حرّاسه» الذين استدعتهم ريّا من فريجيا إلى كريت. وبحسب روايات بعضهم أنه كان في رودوس تسعة من التيلخينيين[32]، ولم يدع بالكوريتيين منهم سوى أولئك الذين رافقوا ريّا إلى كريت، وأقاموا على «تربية زيوس الطفل». وأسّس كيربانتوس، صديق الكوريتيين مدينة هيرابيتنا. وهو من أعطى الذريعة للبراسيين كي يشيعوا بين الرودوسيين، أن الكوريبانتي كانوا ضرباً من ضروب الأرواح: أبناء أثينا وهيليوس. وحسب آخرين، أن الكوريبانتي أبناء كرونوس؛ وأخيراً هناك من الكتّاب من يرى فيهم أبناء زيوس وكالليوبا، ويؤكّدون على أنهم هم الكابيري أنفسهم. وعلى حدّ قولهم، إن هؤلاء الأخيرون، غادروا إلى ساموتراقيا (التي كانت من قبل تدعى ميليتا)، وأن طقوس الكابيري كان لها طابع صوفي.

20- وقد جمع ديميتري السكيبسيسي هذه الروايات كلّها. لكنّه لم يأخذ بالزعم الأخير، لأنه لم يكن في ساموتراقيا على حدّ قوله، أيّ روايات عن الكابيري. لكنّه يسوق رأي ستيسيمبروس الفاسوسي الذي يفيد بأن طقوساً مقدّسة كانت تؤدّى على شرف الكابيري في تراقيا، ويرى أن الكابيري أخذوا تسميتهم من جبل كاثيروس

في بيريكينتيا. ويرى بعضهم أن الكوريتيين هم خدم هيكاتي، ويدغمونهم بالكوريبانتي. ولكنّ ديميتري السكيبسيسي يعارض هذا أيضاً (على الضدّ مما قاله يوريبيدس)[33] ويقول، إن عبادة ريّا في كريت لم تكن معتادة وشائعة كعبادة محلّية، وهي لم تكن كذلك إلاّ في فريجيا وطروادا؛ وحسب رأيه أن من يزعم مثل هذه المزاعم إنّما يروي أساطير ولا ينقل معلومات تاريخية؛ وعلى وجه العموم يمكن أن يفضي بهم إلى هذا الخطأ أيضاً، إدغام أسماء الأماكن مصادفة. فإيدّا مثلاً ليس جبلاً طروادياً فقط، بل هو كريتيّ أيضاً، وديكتا مكان في سكيبسيس وجبل في كريت. وقمّة إيدّا، بيتنا، اشتقّ منها اسم مدينة هيرابيتنا. وهيبوكورونا مكان في منطقة إدراميتين، أمّا هيبوكورونوس، فهو في كريت. وسامونوس، هي الرأس البحرية الواقعة في شرقيّ الجزيرة، وهو أيضاً اسم سهل في منطقة نيادرس ومنطقة الإسكندريين.

21- يرى آكوسيلايوس الآرغوسي أن كادميلوس هو ابن كابيرو وهيفستوس ووالد ثلاثة من الكابيري الذين انحدرت منهم الحوريات الكابيريدس. وبحسب قول ثيريكيدس أن تسعة كيربانتيين انحدروا من أبوللون وريتيا، وأن هؤلاء سكنوا في ساموتراقيا. ومن هيفستوس وكابيرو ابنة بروتييوس، خرج ثلاثة كابيري وثلاث حوريات - كابيريدس؛ وقد أنشئت على شرف هؤلاء وأولئك طقوس مقدّسة. وحظي الكابيري بأعظم تبجيل في إيمبروس وليمنوس على وجه الخصوص، ولكنّهم بجلوهم أيضاً في بعض مدن منطقة طروادا. وقد أحيطت أسماء هؤلاء بسرّية تامّة. ويذكر هيرودوت[34] وجود معبد للكابيري وآخر لهيفستوس في ممفيس؛ ولكنّ قمبيز هدمهما، كما يقول. وأماكن عبادة هذه الأرواح غير مسكونة: كوريبانتوس في هاماكسيتيا، في منطقة تتبع الآن للإسكندريين وتقع قرب سمينثوس، وكوربيسّا في منطقة كيبسيس قرب نهر يفريينتوس وقرية تحمل الاسم عينه، وكذلك قرب جدول إيثالوينس. وحسب ديميتري السكيبسيسي يبدو إدغام الكوريتيين والكوريبانتي أمراً معقولاً؛ فقد عدّوهم فتياناً أو شباباً كانوا يدعونهم لتأدية الرقصات القتالية أثناء إقامة الاحتفالات بعيد والدة الآلهة، وأعياد «الكوريبانتس»، لأنهم أثناء وضعية الرقص «كانوا يتحرّكون وهم ينطح واحدهم الآخر برأسه»[35]. ويدعوهم هوميروس بالراقصين الماهرين[36]:

ادعوا إلى هنا الراقصين الثياكيين المهرة.

(*الأوذيسا* VIII، 250)

وبما أن الكوريبانتي كانوا راقصين يدخلون طور النشوة الروحية، فإننا ندعو الذين يدورون بعنف شديد أنهم «يحاكون الكوريبانتيين».

22- وعلى حدّ قول بعضهم إنّ الديكتيلي الإيدّيين اسم حمله سكّان مرتفعات إيدّا الأوائل. لأنهم دعوا المرتفعات «أرجلاً» وقمم الجبال «روؤساً». وعلى هذا النحو دعيت بعض أطراف إيدّا (كلّها كان مكرّساً لأمّ الآلهة) داكتيلي. ويرى سوفوكليس[37] أن أوّل داكتيلي كانوا الرجال الخمسة الذين اكتشفوا الحديد وابتكروا طريقة تصنيعه، كما اكتشف هؤلاء أشياء كثيرة أخرى نافعة في الحياة؛ وكان لهؤلاء خمس أخوات؛ ووفق عددهم دعوهم كلّهم داكتيلي[38]. ولكنّ آخرين يروون القصة الميثولوجية بطريقة مغايرة، فيجمعون فيها بين عنصر مشكوك فيه وآخر؛ وفي غضون ذلك جاء عدد الداكتيلي وأسماؤهم مختلفة عندهم؛ فدعوا أحدهم كالميس، والآخرين: دامنامينوس، وهرقل، وأكمون. ورأى بعضهم فيهم سكّان إيدّا الأصليين، بينما رأى آخرون أنهم وافدون إلى هنا. لكنّ جميعهم يتّفق على أنهم أوّل من أخذ يعدّن الحديد في إيدّا؛ ويرى كلّهم فيهم سحرة مشعوذين وخدماً لوالدة الآلهة عاشوا في فريجيا حول إيدّا. فهم يدعون طروادا فريجيا، لأنّ جيرانها الفريجيين استولوا عليها بعد دمارها. ويفترضون أن الكوريتيين والكوريبانتي هم أحفاد الداكتيلي الإيدّيين. وعلى أيّ حال، دعي أوّل مئة شخص ولدوا في كريت بالداكتيلي الإيدّيين؛ ويقولون، إن الكوريتيين التسعة كانوا أحفادهم؛ وقد أنجب كلّ منهم، على حدّ قولهم، عشرة أطفال دُعوا بالداكتيلي الإيدّيين.

23- ومع أن أقلّ ما أحب هو الغوص فيما هو ميثولوجي، إلاّ أنني مرغم على مثل هذه المناقشة لهذا الموضوع لأنه يخصّ تعاليم عن الآلهة. وكل تعاليم عن الآلهة يجب أن تبحث في المعتقدات القديمة والأساطير، لأنّ القدماء غلّفوا بصيغة مبهمة تصوّراتهم الطبيعية عن هذه المسائل، وكانوا دائماً يضفون العنصر الميثولوجي على محاكماتهم. وليس من السهل أبداً تخمين مثل هذه الألغاز تخميناً دقيقاً. بيد أننا إذا ما أخرجنا حشد القصص الميثولوجية كلّه إلى النور، تلك التي يوافق بعضها بعضاً، وتلك التي تناقض واحدتها الأخرى، فسيكون من الأسهل استناداً إليها أن نخمّن الحقيقة. فالأساطير التي تتحدّث عن تجوال خدم الآلهة الغيورين والآلهة أنفسهم في الجبال، وعن الإلهام الإلهي الذي يهبط عليهم، تروى على الأغلب، استناداً إلى الأساس عينه الذي يعتمده البشر لعدّ الآلهة كائنات سماوية تولي عنايتها لأشياء كثيرة، كما توليها على وجه الخصوص للتنبؤ بالأمارات والفؤول. وعلى هذا النحو من الواضح أن التعدين، والصيد، والبحث عن الأشياء الضرورية للعيش، هي نوع «التجوال في الجبال»، بينما الشعوذة، والسحر قريبان من الإلهام الديني، والطقوس الدينية، والكهانة. ومثلها مهارة [هؤلاء الناس] خاصة في فنون الديونيسية والأورفية. وعلى وجه العموم فإن هذا يكفي عن هذه الأشياء.

الفصل الرابع

1- بما أنني قدّمت في البداية وصفاً للجزر المنتشرة حول البيلوبونيز، مثلها مثل غيرها، وأوليت اهتماماً خاصة لتلك الواقعة في خليج كورينثوس وتلك التي أمامها، فإنه ينبغي على الآن أن أتحدّث بالترتيب عن كريت (وهي تنتمي إلى البيلوبونيز أيضاً) وبعض الجزر الأخرى الواقعة على مقربة منها. وإلى هذه الأخيرة تنتمي الكيكلادا والسبورادا، وبعضها يستحقّ الذكر، أمّا بعضها الآخر فأقلّ أهمية.

2- والآن سأتحدّث عن كريت أولاً. ومع أنها بحسب إيفدوكس تقع في بحر إيجة، إلاّ أنه لا يجوز التأكيد على ذلك، بل من الأفضل أن يقال، إنها تقع بين قورينائية وشطر اليونان الممتدّ من سونيوس إلى لاكونيكا؛ وتمتدّ كريت طولاً على موازاة هذه البلدان من الغرب إلى الشرق؛ وتشاطئ من الشمال بحر إيجة والبحر الكريتي، ومن الجنوب البحر الليبي الذي يجاور البحر المصري. ويقع الطرف الغربي من هذه الجزيرة عند ثالاسارنا؛ ويبلغ عرض كريت 200 مرحلة تقريباً، وتنقسم إلى رأسين بحريتين، الرأس الغربية منهما تدعى كريوميتوبون[1]، والشمالية تدعى كيمار، أمّا الرأس الشرقية، فهي رأس سامونوس التي تبرز أبعد قليلاً من سونيوس نحو الشرق.

3- وبحسب سوسكيراتوس (الذي يرى أبوللودوروس أن معطياته عن الجزيرة دقيقة)، أن طول كريت لا يزيد عن 2300 مرحلة، وأن عرضها أقلّ من طولها[2]، ويبلغ محيطها بحسب سوسيكراتوس، ربّما أكثر من 5000 مرحلة. وقد حدّده أرتيميدور بـ 4100 مرحلة. أمّا هيرونيموس فإنه على الضدّ من هذا، فإذ يعتمد طول الجزيرة بـ 2000 مرحلة، ويرى أن عرضها غير متماثل، يمكنه أن يحسب محيطها بأكثر مما حسبه أرتيميدور. لأنّ أكثر من ثلث طولها [....][3]، ويمتدّ من هنا برزخ طوله 100 مرحلة مع مستوطنات أمفيمالا على البحر الشمالي، وعلى البحر الجنوبي مع فينيكس التي تعود للامبيين. ويصل عرض الجزيرة أقصى مدى له في شطرها المركزي. ويلتقي شاطئاها هنا من جديد ليشكّلا برزخاً أضيق من البرزخ السابق (عرضه 60 مرحلة تقريباً)، يقع بين مينويا، مدينة الليكتيين، وهيرابيتنا والبحر الليبي؛ وثمّة في الخليج مدينة. وتنتهي الجزيرة برأس سامونوس البحرية الحادة التي تتّجه نحو مصر وجزر الرودوسيين.

4- وكريت جزيرة جبلية حراجية، لكنّ فيها ودياناً خصبة، وتدعى جبالها الغربية باسم ليفكا[4]، وهي ليست أقلّ علوّاً من تايجيت، وتمتدّ ما يقارب 300 مرحلة طولاً لتشكّل سلسلة جبلية تنتهي عند المضيق تقريباً. وفي وسطها، في أعرض جزء منها، يقع

جبل إيدّا، وهو أعلى جبل في كريت، شكله بيضوي ومحيطه 600 مرحلة؛ وتقع حوله أفضل مدن الجزيرة. وعلى وجه العموم ثمّة جبال أخرى في كريت يماثل علوها علوّ ليفكا تقريباً؛ ويقع بعض هذه الجبال في جنوبي الجزيرة، وبعضها الآخر في شرقيها.

5- وتستغرق الطريق البحرية من قورينائية إلى كريوميتوبون نهارين وليلتين؛ والمسافة من كيمار إلى تينار 700 مرحلة (تقع بينهما كيثيرا)؛ أمّا الإبحار من ساموئوس إلى مصر فيستغرق 4 نهارات و4 ليال؛ ولكنّ آخرين يرون أن الرحلة لا تستغرق سوى ثلاثة أيام بلياليها. ووفق حسابات بعضهم أن مسافة هذه الرحلة تبلغ 5000 مرحلة، أمّا حسابات بعضهم الآخر فتجعلها أقلّ. ويرى إيراتوسفين أن المسافة من قورينائية إلى كريوميتوبون هي 2000 مرحلة، ومن هناك إلى البيلوبونيز أقلّ [....][5].

6- اللغات هناك متنوّعة ومختلطة.

يقول هوميروس:

... تجدين هناك الآخيين

مع فصيل طليعتهم القبلية[6]، والكريتيين

ذوي الروح القتالية، والكيدونيين

والدوريين الموزّعين على ثلاثة بطون،

وقبيلة البيلاسيغيس.

(*الأوذيسا* XIX، 175)

وبحسب ستافيلوس أن الدوريين من هذه القبائل شغلوا الشطر الشرقي من الجزيرة، وشغل الكيدونيون شطرها الغربي، والإيثيوكريتيون شطرها الجنوبي. وللإيثيوكريتيين مدينة براسوس حيث يقع معبد زيوس ديكتييوس. أمّا القبائل الأخرى الأكثر قوّة، فقد سكنت السهول. وقد يكون الإيثيوكريتيون والكيدونيون هم السكّان الأصليون، والآخرون وافدين جاؤوا، كما يقول أندرون، من تساليا، من شطرها الذي كان يدعى دوريدا، ويدعى الآن هستيوتيدا. فقد تحرّك الدوريون الذين كانوا يقطنون قرب بارناس، تحرّكوا من هذه البلاد، وأسّسوا كما يقول هذا الكاتب، أرينيوس، وبويون، وكيتينوس، ولذلك دعاها هوميروس[7] trichaikes[8]. ولكنّ رؤية أندرون هذه لم تحظ برضا الكتّاب، لأنه دعا المدن الدورية الأربع ثلاثاً، ودعا ميتروبوليا الدوريين مستعمرة التساليين. وقد رأوا أن معنى كلمة trichaikes مشتقّ إمّا من كلمة trilophia[9]، أو لأنّ الريش على خوذاتهم كان trachinoi[10].

7- وفي كريت عدد من المدن؛ أكبرها وأشهرها ثلاث: كنوسوس، وغورتينا،

وكيـدونيا. ويمجّـد هـوميروس منهـا كنوسـوس علـى وجـه الخصـوص (فقـد وصـفها «بالعظيمة» ودعاها «عاصمة مينوس»[11])، ثـمّ حـذا الكتـاب المحـدثون حـذوه. والحقيقـة أن المدينـة كانـت لـزمن طويـل الأولى بجبروتهـا بـين مـدن الجزيـرة كلّهـا؛ لكنّهـا فقـدت فيما بعد أهميتها بعد أن خسرت كثيراً من ميزاتها، وتحوّل مجدها إلى مدينتيّ غورتينـا وليكتوس. ولكنّ كنوسوس استعادت هيبتها فيما بعد كميتروبوليا. وتقع هـذه المدينـة في سهل يمتدّ محيطه على 30 مرحلة بين منطقتيّ ليكتوس وغورتنيا؛ وتبعـد كنوسـوس عن هـذه الأخيرة 200 مرحلـة، وعـن ليتـوس 120 مرحلـة؛ ويـدعو هـوميروس هـذه الأخيرة ليكتوس[12]. وتبعد كنوسوس عـن البحـر الشـمالي 25 مرحلـة، أمّـا غورتينـا فهـي تبعـد عن البحر الليبي 90 مرحلة، وتبعد ليكتوس عنه 80 مرحلة. ولكنوسوس مرسى سفن، هو هيراقليا.

8- ويقولون، إن مينوس استخدم أمنيس، حيث يقع معبد إيليثيا، مرسـى لسـفنه. وكانت كنوسوس تدعى في الأزمنة الماضية كيراتوس، وهـو الاسـم عينـه الـذي كـان يحمله النهر الذي يجري بالقرب منهـا. ويقـدّم التـاريخ مينـوس لنـا مشـرّعاً مرموقـاً، وأوّل من فـرض سـيطرته علـى البحـر[13]؛ وقسّـم الجزيـرة إلى ثلاثـة أجـزاء وبنـى في كـلّ جـزء مدينـة؛ وكنوسـوس في [....][14]، ضـدّ البيلويـونيز. وتقـع هـذه المدينـة[15] إلى الشـمال. وحسب إيثور أن مينـوس كـان يحـاكـي المـدعو رادامـانثوس القـديم الـذي كـان شخصـاً عادلاً جداً وحمل اسم شقيق مينوس عينه؛ ويزعمـون أن رادامـانثوس أوّل مـن حضّـر هـذه الجزيرة، إذ وضع القـوانين، ووحّـد المـدن كلّهـا تحـت سـلطة ميتروبوليـا واحـدة ومنحهـا معايير الدولة؛ وقد زعم في أثناء ذلك أنه يتلقّـى قراراتـه الـتي يصـدرها كلّهـا مـن زيـوس. ومحاكاة لما كان يفعله رادامانثوس، كـان مينـوس يصـعد إلى الجبـال كـلّ تاسـع عـام إلى كهـف زيـوس، فيمضـي هنـاك بعـض الوقـت ثـمّ يعـود حـاملاً معـه أوامـر وإرشـادات مكتوبة كان يدّعي أنها أوامر وإرشادات زيوس. ولذلك قال هوميروس:

... كان يحكم هناك مينوس

كلّ تاسع عام يحادث زيوس العظيم.

(*الأوذيسا* X، 19)

هذا ما يقوله إيثور. لكنّ الكتّاب القدماء ينقلون معلومات أخرى عن مينـوس، تنـاقض هـذه الكلمـات: لقـد كـان مينـوس حاكمـاً متسـلطاً مسـتبدّاً، اسـتخدم العنـف وفرض الإتاوات على الشعب. وفي غضـون ذلـك عكـس هـؤلاء الكتّـاب في تراجيـديات، قصصاً عن المينوتاوروس واللابيرينتيوم، ومغامرات ثيسيوس وديدادلوس.

9- ومن الصعب أن نجزم كيف كان واقع الحال فعلاً. فهناك حكاية أخرى تتضمن ما يناقض هذه تماماً، إذ يقول بعضهم إن مينوس كان من الغرباء، بينما يقول آخرون، إنه كان واحداً من سكّان الجزيرة الأصليين. ويهيأ لي أن هوميروس يميل أكثر إلى وجهة النظر الثانية عندما يقول:

هو، سيّد الرعد، أنجب مينوس، حارس كريت.

(*الإلياذا* XIII، 451)

وفيما يخصّ كريت، يتّفق الكتّاب كلّهم على أنه كان للجزيرة قديماً قوانين جيّدة، وأن أفضل الإغريق، وفي المقام الأول منهم اللاكيديمونيون، قلّدوهم في هذا الميدان، وهو ما يشهد به أفلاطون في «القوانين»[16]، وكذلك إيثور الذي يصف بناء دولة كريت في بحثه «أوروبا»[17]. ولكنّ القوانين الكريتية تغيّرت فيما بعد تغيّراً كبيراً نحو الأسوأ. وواقع الأمر أنه بعد التيرينيين الذين أنهكوا أكثر من جميعهم بحرنا[18] بغزواتهم، ورث الكريتيون عنهم أعمال القرصنة البحرية. وفيما بعد وضع الكيليكيون حدّاً لعربدتهم هذه. ولكنّ الرومان هزموا جميعهم، فاستولوا على كريت، ودمّروا قلاع القراصنة الكيليكيين. وفي كنوسوس الآن مستوطنة رومانية.

10 - إن ما قلناه عن كنوسوس يكفي. وهذه المدينة ليست غريبة عنّي، مع أن التغيّرات وتقلّبات مصير البشر قطعت التواصل بيننا. فدوريلايوس، أحد «أصدقاء»[19] ميتريدات يفيرجيت، كان رجلاً ماهراً في فنون التكتيك. وبفضل خبرته في المجال العسكري، أرسل ليجندّ المقاتلين المأجورين، وغالباً ما تأتّى له أن يزور اليونان وتراقيا؛ وغالباً ما زار أيضاً المأجورين الكريتيين قبل أن يستولي الرومان على هذه الجزيرة، فقد كانت هناك أعداد مهولة من المقاتلين المأجورين الذين كانت تجندّ منهم عصابات قطّاع الطرق كذلك. وصادف مرّة أثناء وجود دوريلايوس في الجزيرة، أن نشبت الحرب بين الكنوسوسيين والغورتينيين. فاختاروه قائداً عسكرياً، وبعد نصر سريع حققّوه، قلّدوه أعلى أوسمة الشرف. وبعد بعض الوقت علم دوريلايوس أن «أصدقاء» يفريجيت دبّروا ضدّه مؤامرة دنيئة وقتلوه غدراً؛ وإذ علم أن السلطة آلت بالوراثة إلى أرملته وأبنائه، عزف في ظل تلك الظروف عن العودة إلى بلاده وبقي في كنوسوس. وأنجب من امرأة من ماكيتيس تدعى ستيروبا، ولديه لاجيتوس وستراتاركوس (وقد تسنّى لي شخصياً أن أرى ستراتاركوس هذا وقد بلغ من العمر عتيّاً)، وابنة واحدة. وكان ليفريجيت والدان؛ ورث العرش منهما المدعو ميتريدات الذي لقّب إيفباتور، منذ أن كان في 11 من عمره. وكان دوريلايوس بن فيليتروس أخاً له بالرضاعة، وكان فيليتروس

هذا شقيق دوريلايوس الذي ذكرناه آنفاً وقلنا إنه كان ضليعاً في فنون التكتيك. ولما غدا الملك ميتريدات رجلاً ناضجاً، ولأنه كان من قبل مرتبطاً بدوريلايوس ارتباطاً وثيقاً بحكم أنهما نشأا وتربيا معاً، لذلك أحاطه بأعظم آيات التكريم، واهتمّ بأقاربه وأمره بأن يستدعي الذين يقيمون منهم في كنوسوس لكي يعودوا إلى أرض آبائهم. وكان هؤلاء أفراد عائلة لاجيتوس وشقيقه الذين بقوا بعد وفاة الأب، وكانوا قد بلغوا سن النضج، فتركوا علاقاتهم وما يملكون في كنوسوس وتوجهوا إلى ميتريدات. لقد كانت ابنة لاجيتوس والدة والدتي. وهكذا عاش أقارب دوريلايوس يظللهم اليسر الذي كان يظلله؛ ولكن بعد سقوطه (فقد اتهم بأنه حاول أن يدفع المملكة إلى العصيان والانتقال إلى جانب الرومان بعد أن تلقّى وعداً بأنه سيكون على رأس الدولة)، سقط معه نفوذهم أيضاً وتراجعت مكانتهم إلى الحضيض. وفقدت أهميتها كذلك علاقتهم التجارية مع سكّان كنوسوس الذين عانوا بدورهم من آلاف التبدلات. هذه هي روايتي عن كنوسوس.

11- وتشغل مدينة الغورتينيين المكانة الثانية من حيث الأهمية بعد كنوسوس، كما أرى. فعندما كانت هاتان المدينتان توحدان جهودهما، كانتا تفرضان سلطتهما على المدن الأخرى كلّها؛ أمّا عندما كانتا تختلفان، فقد كانت الأوضاع تتردّى في الجزيرة كلّها. لقد كانت كيدونيا هي التي تقرر ميزان القوى لصالح الجهة التي تميل إليها. وتقع مدينة الغورتينيين في منطقة سهلية؛ وربّما كانت محاطة في الزمن القديم بسور. يقول هوميروس:

... في غورتينا المحصّنة بالأسوار؛

(*الإلياذا* II، 646)

ولكنّ أسوار المدينة هدمت فيما بعد من أساسها، وبقيت المدينة من غير أسوار إلى الأبد. ومع أن بطليموس فيلوباتور شرع يوماً بإعادة بناء أسوارها، إلاّ أنه لم يتسنّ له أن يبني أكثر من 80 مرحلة[20]. وفي زمن ما شغل الشطر المسكون من المدينة مساحة كبيرة بلغ محيطها ما يقارب 50 مرحلة. وكانت المدينة تبعد عن البحر الليبي عند ليبين (مينائه التجاري) 90 مرحلة. وهناك أيضاً ميناء آخر، هو مالتا، تبعد المدينة عنه 130 مرحلة. ويعبر نهر ليثيوس المدينة كلّها.

12- ومن ليبين ينحدر ليوكوكوم وخليله إيفكسينثيتوس اللذان يروي عنهما ثيوفراست في مؤلّفه «عن الحب»[21]. وبحسب قوله إن واحدة من أصعب المهام التي كلّف بها ليفكوكوم إيفكسينثيتوس تلخصت في الآتي: أن يأتي بكلبه من براس.

وكان البراسيون جيران الليبينيين، فهم يعيشون على بعد 70 مرحلة عن البحر و180 مرحلة عن الغورتنيين. وكما أشرت سابقاً[22]، فإن براس كانت للإيثيوكريتيين، ولذلك كان يقوم هنا معبد زيوس الديكتي. فديكتا تقع غير بعيد عنه، وليس «جبل إيدّا قريباً منه»، كما يقول أراتوس[23]. وحقيقة الأمر أن ديكتا تقع على بعد 1000 مرحلة من إيدّا نحو مطلع الشمس، وتبعد 100 مرحلة عن سامونيوس. وبين ساموتيوس وكيرونيس تقع براس على ارتفاع 60 مرحلة فوق البحر. وقد هدمها سكّان هيرابيتنا ولم يبقوا على أيّ أثر حتّى لأساساتها. ويقول إن كاليماخ جانب الحقيقة إذ روى أن بريتومارتيس الفارّ من ظلم مينوس قفز من ديكتا في شبكة صيد السمك[24]، ولذلك دعاها الكيدونيون ديكتينا، ودعوا الجبل ديكتا. ولكنّ واقع الحال، أن كيدونيا لا تقع على مقربة من هذه الأماكن كلّها، بل تجاور الأطراف الغربية للجزيرة. بيد أن في منطقة كيدونيا جبل يدعى تيتيروس، وفوقه معبد، لكنّه ليس الديكتيوس بل الديكتينيوس.

13- أمّا كيدونيا فهي تقع على البحر وتتّجه نحو لاكونيكا، وتبعد عن كلا المدينتين، كنوسوس وغورتينا ما يقارب 800 مرحلة، وحوالي 80 مرحلة عن أبتيرا، وعن البحر في هذه المنطقة 40 مرحلة. ومرسا أبتيرا، هو كيسام. والجيران الغربيون للكيدونيين، هم البوليرينيون الذين يقع في منطقتهم معبد ديكتينا. ويبعد هؤلاء عن البحر 30 مرحلة، وعن ثالاسارنا 60 مرحلة. وفي الأزمنة السابقة كان هؤلاء يعيشون في قرى، وفيما بعد شكّل الآخيون والداكونيون هناك مستوطنة مشتركة، وبنوا سوراً حول المكان الذي خلقته الطبيعة نفسها حصيناً يتّجه نحو الجنوب.

14- ومن المدن الثلاث التي وحّدها مينوس في ميتروبوليا واحدة، هدم الغورتينيون المدينة الأخيرة منها (وهي مدينة ثيستوس). وتقع ثيستوس على بعد 60 مرحلة عن غورتينا، و20 مرحلة عن البحر، و40 مرحلة عن مرسى ماتالوس. ويمتلك أرض المدينة اليوم الغورتينيون الذين دمّروها. وتعود لهؤلاء الأخيرين أيضاً ريتيوس وثيستوس:

ريتيوس الشاسعة وثيستوس

(*الإلياذا* II، 648)

وبحسب الرواية أن إيبيمينيدس الذي تطهّر بالشعر، ينحدر من ثيستوس. وبدورها ليسين تقع في منطقة ثيستوس. ومرسى ليكتوس (التي ذكرتها من قبل)[25]، هو كيرونيس، حيث يقع معبد بريتومارتيس. ولكنّ مدينتيّ ميليت وليكاستوس الوارد ذكرهما في «سجلّ السفن»[26] مع ليكتوس، لم يعد لهما الآن وجود؛ فقد استولى

الليكتيون على شطر من أراضيهما، واستولى على الباقي الكنوسوسيون بعد دمار المدينتين.

15- وتبعاً لهوميروس الذي يدعو كريت «ذات المئة مدينة»[27]، وأحياناً «ذات التسعين مدينة»[28]، يفترض إيثور أن الدوريين الذين رافقوا ألثمين الآرغوسي بنوا بعد حرب طروادا عشر مدن إضافية هنا. وعلى حدّ قوله إنه لهذا السبب دعا أوديسيوس الجزيرة «بذات المدن التسعين». وربّما يكون لهذا التعليل مشروعيته؛ بيد أن آخرين يؤكّدون أن أعداء إيدومينوس دمّروا هذه المدن العشر. ومع ذلك فإن هوميروس لا يقول: إنه كان في كريت مئة مدينة في زمن حرب طروادا، بل في زمنه هو على أرجح تقدير (فهو يتحدّث بصيغة المتكلّم، ولكن حتّى لو كانت هذه الكلمات لواحد من معاصريّ حرب طروادا، كما في «الأوذيسا»، حيث يدعو أوديسيوس الجزيرة «بذات المدن التسعين»، فإن هذا التأويل كان صحيحاً تماماً). ومن جهة أخرى، حتّى لو قبلنا هذا الزعم[29]، فإن ما يليه[30] لا يمكن تبريره. فليس من المعقول أن يدمّر أعداء إيدومينوس هذه المدن العشر مثلاً أثناء حملة أو بعد عودته من تحت أسوار طروادا. ولو كان الأمر على هذا النحو لكان هوميروس ذكّر بهذا الحدث عندما قال:

إيدومينوس (الذي لم يفقد في البحر أيّ رفيق من
الذين نجوا من الحرب معه) بلغ كريت،

(الأوذيسا III، 191)

وغنيّ عن البيان القول، إن أوديسيوس لم يكن قد علم بعد بدمار هذه المدن، لأنه لم يلتق أيّ إغريقي أثناء ترحاله، ولا فيما بعد؛ كما أن نسطور الذي حارب مع إيدومينوس سوية، ووفّق بالعودة إلى وطنه بسلام، لم يعرف شيئاً عمّا حدث في بلاد إيدومينوس خلال الحملة، أو لدى عودته من تحت أسوار طروادا، بل حتّى بعد عودته أيضاً. والحقيقة، إذا كان إيدومينوس قد نجا مع رفاقه كلّهم، فهذا يعني أنه عاد قوياً، على الأرجح بما يكفي لكي يمنع أعداءه من الاستيلاء على مدنه العشر هذه. إن هذا وصفي لمدن الكريتيين.

16- وفيما يخصّ بناء الدولة عند الكريتيين، الذي وصفه إيثور، فيكفي أن نقدّم هنا عرضاً سريعاً عنه. فحسب ما يقوله إيثور، يبدو أن المشرّع الكريتي انطلق من موضوعة رئيسة، هي أن الحرية، هي الخير الأسمى بالنسبة للدولة. لأنّ الحرّية وحدها تجعل الخيرات ملكية لأولئك الذين اكتسبوها، بينما الخيرات التي اكتسبت بالعبودية تبقى ملكاً للحكّام وليس للمحكومين. إن على الذين يتمتّعون بالحرية أن

يدافعوا عنها وألاّ يفرّطوا بها أبداً. ثمّ إن الوفاق لا يظهر إلاّ هناك حيث يجري استبعاد النزاعات التي تنتجها الأنانية والبذخ. والواقع أنه إذا ما عاش المواطنون باعتدال وبساطة، فلن يكون لديهم مكان للحسد أو الغطرسة، أو الكره تجاه الآخرين المساوين لهم. ولذلك أقرّ المشرّع أن يجتمع الفتيان فيما دعوها «فرقاً»[31]، والرجال في ولائم عامّة مشتركة (دعوها آندرييات) لكي يتمكن الفقراء الذين يأكلون على حساب المجتمع من أن ينالوا نصيباً متساوياً مع ما يناله الأثرياء. ولكي ينشأ الفتيان شجعاناً غير هيّابين، كانوا يدرّبونهم منذ نعومة أظفارهم على التعامل مع السلاح، والاعتياد على الأعمال الشاقة، لكي يعتادوا على ازدراء الحرّ والبرد، وتجاوز الطرقات الصخرية والمنحدرات الوعرة، وتحمّل الضربات أثناء الألعاب وفي المعارك القتالية. ولم يتدرّبوا على الرمي من القوس فقط، بل كانوا يتدرّبون على تأدية الرقصة القتالية (التي علّمها الكوريتيون، ثمّ نظّمها بعد ذلك الشخص الذي دعيت هذه الرقصة باسمه: بيرّيخا)[32]، وهكذا نرى أنه حتّى الألعاب عندهم لم تكن خالية من التمارين القتالية. وعلى نحو مماثل، كان ينبغي أن يستفاد في الأغاني من الإيقاعات الكريتية القتالية التي ابتكرها فاليس؛ وإلى هذا الأخير نسب الكريتيون تأليف البييانات وسواها من الأغاني المحلّية الأخرى، كما نسبوا إليه أيضاً تكريس كثير من العادات. لقد كانوا ملزمين أن يرتدوا الرداء الحربي والحذاء الحربي، وأثمن الهدايا عندهم، هو السلاح.

17- وهناك من يزعم، على حدّ قول إيثور، إن أكثر العادات التي تعدّ كريتية، هي من منشأ لاكونيّ. لكنّ حقيقة الأمر، هي أن الكريتيين هم فعلاً أوّل من كرّسها، وأن الإسبرطيين هذّبوها وحسّنوها. وعندما تعرّضت المدن الكريتية، خاصة مدينة الكنوسوسيين للنهب والتخريب، ابتعد سكّانها عن العمل العسكري. وقد حافظ الليكتيون والغورتينيون وبعض المدن الصغيرة الأخرى، على القواعد والإرشادات الكنوسوسية، بشكل أفضل مما فعله هؤلاء أنفسهم. فمن يريد أن يثبت أن العادات اللاكونية هي الأقدم فعلاً، يسوق العادات الليكتية برهاناً على صحّة زعمه هذا. لأنّ الليكتيين بصفتهم مستعمرين حافظوا، كا يؤكّد هؤلاء، على عادات الميتروبوليا. وعلى وجه العموم فإنه من السذاجة تماماً أن نصف الذين لديهم أفضل القواعد والإرشادات، وأفضل بناء للدولة بأنهم يقلّدون أسوأ المؤسّسات. ولكنّ إيثور يقول، إن هذا الزعم زعم خاطئ، لأنه لا يجوز أن نسقط واقع الأشياء القائم اليوم على ما كان قائماً في الزمن القديم، وإلاّ فإن هذا وذاك ينقلب كلّ منهما إلى نقيضه. ففي الأزمنة القديمة مثلاً، ساد الكريتيون على البحر؛ بل شاع في هذا السياق مثل عن

الـذين يتظـاهرون بـأنهم لا يعرفـون شـيئاً عمّـا هـو معـروف لهـم فعـلاً، يقـول: «لا يعـرف الكـريتي البحـر». بيد أنهم تركوا الأعمال البحريـة اليـوم. ومـن جهـة أخـرى، أن تكـون بعـض المـدن في كريـت مسـتعمرات إسـبرطية، فـإن هـذا لا يعـني أنهـا كانـت ملزمـة أن تحافظ علـى العـادات الإسـبرطية. فكـثير مـن المسـتعمرات لا يحـافظ البتـة علـى العـادات الوطنيـة، وكـثير مـن مـدن كريـت ليسـت مسـتعمرات إسـبرطية، ولكـنّ لهـا مـع ذلـك عادات وأعرافاً واحدة مشتركة معها.

18- ثـمّ يـروي إيثـور بعـد ذلـك، أن المشـرّع الإسـبرطي ليكـورغـوس كـان أصـغر بخمسـة أجيـال مـن ألـثمين الـذي أنشـأ مسـتعمرة في كريـت. ويـروي المؤرّخـون أن ألـثمين كـان ابـن كيسـوس الـذي أسّـس آرغـوس تقريبـاً في الوقـت الـذي شـرع فيـه بـروكليس يسـتوطن إسـبرطا مـن جديـد؛ وكـان ليكـورغـوس بحسـب اعـتراف جمـيعهم، الحفيـد السـادس لبروكليس. ومـن المعـروف أن النّسـخ لا تكـون قبـل الأصـول، كمـا لا يكـون الجديـد قبـل القـديم. فالرقصـة الـتي كانـت مـن عـادات اللاكيـديمونيين، ومثلـها الإيقاعات والبييانات التي أقرّ القانون تأديتها كلّها، إضـافة إلى عـادات وأعـراف أخـرى كثيرة كانت تدعى عندهم كريتية، كما لو أنها نشأت في كريت. وثمّة بـين مناصـب الدولة العليا مناصب لها الإدارات عينها والتسـميات عينهـا الـتي كانـت لهـا في كريـت، كمناصب «الشيوخ»[33] و«الفرسان»[34] مثلاً (إلاّ أنّ «فرسان» كريت كانوا يمتلكـون جيـاداً فعـلاً؛ ومـن هنـا يستنتجون أن منصـب «فـارس» في كريـت هـو الأقـدم لأنـه حـافظ هنـاك علـى الأهميـة الحقيقيـة لتسـميته؛ أمّـا «فرسـان» إسبرطا فلم يكـن لـديهم جيـاد). ولكـنّ الإيفـوروس الإسـبرطيين كـانوا يحملـون لقبـاً مختلفـاً، مـع أنهـم كـانوا يـؤدّون الوظائف نفسها الـتي كـان يؤدّيهـا الكـوسمي الإسـبرطيون. ولا تـزال الـولائم المشـتركة تدعى عند الكريتيين حتّى اليوم «آندريات»، أمّا عند الإسبرطيين فلم يبـق اسمهـا الأول. وعلى أيّ حال فإننا نجد عند ألكمان ما يلي:

من المعتـاد في الـولائم والاحتفـالات أن
ينشد المشاركون في الآندريات الأناشيد

(مقطع 22، بيرغك)

19- ويواصل إيثور روايتـه فيقـول، إن الكـريتيين يقولـون، إن ليكـورغـوس جـاء إليهم للسبب التـالي. لقـد كـان لليكـورغـوس أخ أكـبر يـدعى بوليـديكتس. وقـد تـوفى هذا تاركاً وراءه زوجـة حـاملاً. فشـغل ليكـورغـوس عـرش أخيـه لـبعض الوقـت، ولكـن بعد ولادة الطفل الذي كـان يجب أن يؤول العرش لـه، شغل ليكـورغـوس مكانـة الوصـي

علـى ولـي العهـد. ومـرّة قـال أحـدهم سـاخراً مـن ليكورغـوس، إنـه يعـرف جيـداً أن ليكورغوس سيكون ملكاً في يوم ما. عندئذٍ فكّر هذا الأخير أنه قد يتهم باطلاً بسبب مثل هذه الأقوال بأنه يضمر الشرّ للطفل؛ وبسبب خوفه من أن يحمّله أعداؤه المسؤولية إذا مات الطفل مصادفة أو لأيّ سبب كان، ترك البلاد ومضى إلى كريت. ويقولون، إن هذا هو سبب رحلة ليكورغوس. ولمّا وصل إلى كريت اقترب من فاليس، الشّاعر الميليتي الذي كان ضليعاً في التشريع. وقد أخذ ليكورغوس عن هذا الأخير النهج الذي كان قد اتبعه رادامانثوس، وبعده مينوس لنشر قوانينهما بين الناس، مدّعييْن أنها جاءتهما من زيوس. وزار ليكورغوس مصر، فدرس العادات المحلّية، ويقول بعضهم إنه التقى هوميروس الذي كان يعيش عندئذٍ في كيوس، وبعد هذا كلّه عاد ليكورغوس إلى وطنه. وهنا وجد على العرش، كاريلايوس ابن أخيه بوليديكتس، ثمّ شرع بوضع قوانينه، فزار إله دلفي وحمل من هناك تعليماته (كما كان مينوس قد حمل يوماً قوانينه من كهف زيوس)، التي يشبه أكثرها قوانين مينوس.

20- وبحسب إيثور إن أهمّ العادات الكريتية على وجه الخصوص هي الآتية: يرغم الكريتيون كلّ الشبّان الذين يُستبعدون من «فريق» الفتيان، على الزواج في وقت واحد؛ إلاّ أنهم لا يأتون بالفتيات إلى منازلهم مباشرة، إنّما بعد أن تغدو الفتاة الزوجة مؤهّلة لإدارة شؤون المنزل. وإذا كان للفتاة أخوة، فإن مهرها يعادل نصف نصيب أخيها. ويتعلّم الأطفال القراءة والكتابة، وكذلك الأناشيد التي أقرّ القانون تعليمها لهم، إضافة إلى بعض أنواع الموسيقا. ويقودون الأصغر سنّاً إلى الولائم المشتركة: «الآندريات». وهناك يتناولون الطعام مع الآخرين وهم جلوس على الأرض مرتدين الأردية الخشنة الرثّة نفسها صيفاً شتاء، ويقومون على خدمة الرجال الأكبر سناً وخدمة أنفسهم. ويفتعل المشاركون في المأدبة المشتركة نفسها عراكاً بعضهم مع بعض، وكذلك مع المشاركين في المآدب الأخرى. ويقف على رأس كلّ «آندريا» شخص يدعى بيدونوم[35]. ويوزّعون الفتيان الأكبر سنّاً على «فرق». ويجنّد هذه «الفرق» شبّان أعرق العائلات وأكثرهم نفوذاً، وكلّ منهم يجنّد قدر ما يستطيع. وفي غالب الأحيان يكون والد الشاب الذي جنّد الفتيان في فرقته، هو قائد الفرقة؛ وله الحق في أن يقودهم إلى الصيد، ومباريات السباق، ومعاقبة العصاة منهم. ويعيش هؤلاء على نفقة المجتمع. وفي أيام محدّدة تنطلق «الفرقة» بخطوة عسكرية موقّعة لتلتحم مع «فرقة» أخرى التحاماً قتالياً على وقع أصوات المزاهر والمزامير، كما يحدث وقت الحرب عادة، وهم في أثناء ذلك لا يسدد واحدهم للآخر لكمات بالأيدي فقط، بل ضربات بأسلحة حديدية[36].

21- وعنـد الكـريتيين عـادة فريـدة بالنسـبة للحـب. فهـم لا يحـوزون المعشـوق بالإقناع، بل يخطفونه. ويخبر العشيق أصدقاءه قبل ثلاثة أيام أو أكثر، أنـه ينـوي القيـام بعملية خطف. ومن العار على الأصدقاء أن يخفوا الفتى أو لا يسـمحوا لـه أن يسير على طريق محدّدة، لأنّ هذا يعني في عرفهم أن الفتى لا يستحقّ العشيق المعني. وإذا تبيّن أثناء اللقاء أن الخاطف يعدّ نظيراً للفتى، أو حتّى إذا كان ينتمي إلى فئة اجتماعية أعلى، عندئذٍ يلاحق الأصدقاء الخاطف ويوقفونه، ولكنّهم لا يلجؤون في أثناء ذلك إلى كثير من العنف، إنّما يؤدّون للعادة حقّها وحسب؛ وعلى أيّ حال يجيز الأصدقاء بعد ذلك اقتياد الفتى. أمّا إذا كان الخاطف لا يستحق، فإنهم ينتزعون منه الفتى. ولكنّ الملاحقة تتوقف عندما يقودون الفتى إلى «آندريا» الخاطف. والفتى الذي يستحق الحب عندهم ليس الفتى الذي يتميّز بجماله الفيزيائي، إنّما الذي يتميّز بالشجاعة وحسن الخلق. وبعد أن يقدّم الخاطف الهدايا للفتى، يقوده إلى أي مكان في البلاد. ويتبعهما الأشخاص الذين شاركوا في عملية الخطف؛ وبعد ضيافة شهرين، ورحلات صيد مشتركة (لأنه لم يكن مسموحاً احتجاز الفتى مدّة أطول)، يعودون إلى المدينة. فيطلق الفتى محمّلاً بالهدايا التي كانت تتألّف من معدّات قتالية، وثور، وكأس (وهي الهدايا التي أقرّ القانون تقديمها)، وأشياء أخرى كثيرة وثمينة إلى درجة أن نفقاتها تجعل الأصدقاء يساهمون في تسديدها. فيقدّم الفتى الثور ذبيحة لزيوس، ويولم للذين عادوا معهم جميعهم. ثمّ يروي لهم عن تواصله مع العاشق، وهل هو راض عن سلوك هذا الأخير أم لا، فالقانون كان يجيز له أن يتركه في حال كان هذا قد استخدم معه العنف أو الخطف أثناء الاحتفال بهذا العيد. لقد كان من العار بالنسبة للشاب الجميل المنظر أو الذي ينتمي إلى سلالة أرستقراطية، ألاّ يجد لنفسه عشيقاً، لأنّ ذلك كان يعدّ مؤشراً على طبْع رديء. وينال parastathentes[37] (هكذا كانوا يدعون المخطوفين) حقوقاً تشريفية: أثناء الرقصات الجماعية ومباريات السباق، كانوا يقدّمون لهم أكثر الأماكن تشريفاً، ويجيزون لهم ارتداء ملابس خاصة تميّزهم عن الآخرين، وهي الملابس التي أهداها لهم عشّاقهم؛ وحتّى بعد أن يبلغ واحدهم سنّ النضج كان يرتدي ملابس مميّزة يعرفون بها كلّ من كان kleinos[38]، فهم دعوا العشيق kleinos، والعاشق philetor[39]. هذه كانت عادات الكريتيين في شؤون العشق.

22- وينتخب الكريتيون عشر أرخونتات. ويلجؤون في الأمور التي لها أهمية خاصة، إلى مشورة مستشارين يدعونهم هيرونتس. وفي مجلس الهيرونتس هؤلاء يطلق لقب «كوسمي» على الأفراد الذين يستحقونه، وعلى الذين يعدّونهم ذوي خبرات وتجربة

على وجه العموم. وأنا رأيت أن بناء الدولة الكريتية يستحق الوصف لفرادته وشهرته. ولكن لم يبق من هذه العادات والأعراف كلّها حتّى أيامنا هذه سوى القليل، وفي أغلب الحالات يتّبعون في إدارة شؤون الدولة الكريتية إرشادات المراسيم الرومانية، كما هي الحال في باقي الولايات الرومانية.

الفصل الخامس

1- وتقع على مقربة من كريت جزيرة ثيرا، وهي مستعمرة اللاكيديمونيين وميتروبوليا القورينائيين؛ وعلى مقربة من ثيرا تقع جزيرة أناثا التي يقع فيها معبد أبوللون الإيغليتي. وفي مكان ما يذكرها كاليماخ على النحو الآتي:

إيغليتوس أناثا مع ثيرا اللاكونية المجاورة،

(*مقطع* 113، *شنيدر*)

وفي مكان آخر لا يذكر سوى ثيرا.

الشهيرة بالجياد، وطني الأم.

(*مقطع* 112، *شنيدر*)

وثيرا جزيرة طويلة يبلغ امتداد محيطها 200 مرحلة؛ وهي تقع قبالة جزيرة ديا الواقعة عند هيراقليا الكنوسوسية، على بعد 700 مرحلة من كريت. وبالقرب من ثيرا تقع أناثا وفيراسا. وعلى بعد 100 مرحلة من هذه الأخيرة تقع جزيرة صغيرة هي جزيرة إيوس التي يقول بعضهم إن هوميروس دفن فيها. وإلى الغرب من إيوس تقع جزيرة سيكين، ولاغوسا، وفوليغاندرس التي يدعوها أراتوس «الحديدية» بسبب وعورتها. وبالقرب منها تقع كيمولوس ومن هنا جاء مصطلح «التربة الكيموليتية»[1]. ومن كيمولوس يمكن رؤية سيفنوس، وبسبب ضآلتها ذهبت هذه الجزيرة مثلاً يقول: «حجر النرد السيفنيسي»[2]. وأقرب إلى كيمولوس وكريت تقع ميلوس، وهي جزيرة أكثر أهمية من هذه الجزر، وتبعد 700 مرحلة عن رأس هيرميون سكيلوس البحرية، والمسافة نفسها تقريباً تفصلها عن ديكتينيوس. ومرّة أرسل الأثينيون جيشاً إلى هذه الجزيرة وأبادوا أكثر سكّانها القادرين على حمل السلاح[3]. إن هذه الجزر تقع في البحر الكريتي، أمّا ديلوس نفسها، وجزر كيكلادا الواقعة حولها، وكذلك جزر سبورادا (التي تدخل في عدادها الجزر التي ذكرنا أنها تقع على مقربة من كريت)، فإنها تقع على الأرجح في بحر إيجة.

2- وفي ديلوس مدينة تحمل الاسم عينه، وهي تقع مثلها مثل معبد أبوللون ومعبد

لاتونا، في سهل منبسط؛ ويعلو فوق المدينة جبل كينثوس الصخري الأقرع؛ ويجري عبر الجزيرة نهر صغير يدعى إينوبس، وحتّى الجزيرة نفسها جزيرة صغيرة. ومنذ القدم، منذ الزمن البطولي كانت ديلوس تحظى بالاحترام بفضل الآلهة الذين ذكرناهم، فالأسطورة تروي أن لاتونا تفادت آلام المخاض إذ ولدت هناك أبوللون وأرطميس.

في زمن ما هامت ديلوس في البحر،

يقول بينداروس[4]،

الأمواج تخضع وكلّ ريح للعصف تخضع،
لكن عندما أضنت آلام الولادة ابنة كيوس حتّى الجنون،
ولامست قدماها شطآنه،
ارتفعت في اللحظة عينها أربعة أعمدة،
من جذورها في الأرض على قاعدة فولاذية،
وعلى رؤوسها حملت جلموداً مهولاً.
هنا غدت أُمّـاً، وأبصرت ذريتها الطيّبة.

لقد أضفت جزر كيكلادا المجاورة على ديلوس مجداً ذائعاً، لأنّ هذه الجزر كانت ترسل على شرفها سفارات مقدّسة تمثل الدولة، وكان هؤلاء السفراء يقدّمون الذبائح ويعدّون فرقاً من الفتيات، ويقيمون في الجزيرة احتفالات شعبية كبيرة[5].

3- وفي الأوّل كانت الجزر الكيكلادية تعدّ 12 جزيرة، ثمّ انضمّ إليها بعد ذلك عدد آخر من الجزر. وفي الأحوال كلّها فإن أرتيميدور يعدّ 15 جزيرة، مذكّراً بأن جزيرة يلينا تمتدّ على ما يقارب 60 مرحلة طولاً بموازاة ساحل أتيكا من ثوريكس حتّى سونيوس. وحسب قوله إن جزر كيكلادا تبدأ من هذه الجزيرة. ويقول، إن كيوس أقرب جزيرة إلى جزيرة يلينا، تليها كيفنوس، وسيريفوس، وميلوس، وسيفنوس، وكيمولوس، وبريبيسينتوس، أوليـاروس، وإضافة إلى هذه هناك أيضاً باروس، وناكسوس، وسيروس، وميكونوس، وتينوس، وآندروس، وهياروس. وأنا أرى أن الجزر الأخرى كلّها ما عدا بريبيسينثوس وأولياروس، وهياروس، هي من ضمن الجزر الاثنتي عشرة. فعندما رست سفينتنا على ساحل واحدة من هذه الجزر، وكانت هذه جزيرة هياروس تحديداً، لم أر هناك سوى قرية صغيرة لصيادي الأسماك. وعندما أبحرنا من هناك أبحر معنا على السفينة أحد الصيادين المحلّيين الذي أعدّه مرسله وجهّزه لقيصر (كان قيصر توقف في كورينثوس وهو في طريقه إلى روما للاحتفال بانتصاره في أكيتوم). وفي أثناء الإبحار أجاب هذا على أسئلة الآخرين قائلاً، إنه مرسل

إلى قيصر ليطلب تسهيلات في تأدية الإتاوة. فقد قال، إنه ينبغي عليهم أن يدفعوا 150 دراخما، لكن بالكاد تمكنوا من دفع 100 دراخما. وأراتوس أيضاً أشار في «أشعاره الصغيرة»[6] إلى فقر هؤلاء:

آهٍ أيتها الإلهة لاتونا، يا شبيهة فوليغاندرس الحديدية،

أنت تعبرين على مقربة منّي، كهياروس البائسة.

4- ومع أن ديلوس باتت على هذا النحو جزيرة شهيرة، ولكن مع تدمير الرومان لكورينثوس[7]، زادت شهرتها أكثر. فتجار البحر اتّجهوا إليها، وقد جذبهم إلى هناك الإعفاء من الضرائب والإتاوات، الذي منح للمعبد، إضافة إلى أنّ ميناءها كانت ملائمة. وحقيقة الأمر، هي أن الجزيرة كانت تحظى بموقع مميّز بالنسبة للمبحرين من إيطاليا أو اليونان إلى آسيا. والاحتفال الشعبي، هو شيء ما يشبه النشاط التجاري، وكان الرومان يرتادونه أكثر من أي شعب آخر[8]، حتّى عندما كانت كورينثوس لا تزال على قيد الحياة بعد. وبعد أن استولى الأثينيون على الجزيرة، أخذوا يظهرون اهتماماً بالغاً إن بالتجار أو الطقوس الدينية على حدّ سواء. ولكن حينما جاء إلى ديلوس قادة قوات ميتريدات والتيران[9] الذي دفعها إلى الانتفاضة، نهبوها وخرّبوها تماماً؛ وبعد أن عاد الملك إلى بلاده، وأعاد الرومان سيطرتهم على الجزيرة من جديد، غدت هذه الأخيرة خالية من السكّان. وحتّى يومنا هذا لا تزال ديلوس في حالة مزرية. وهي الآن ملك للأثينيين.

5- رينيا. هي جزيرة صغيرة خاوية تقع على مسافة 4 مراحل من ديلوس، حيث النصب التذكاري للديلوسيين المتوفّين. فقد كان محرّماً أن يدفن أو يحرق جثمان أيّ ميت في ديلوس نفسها، كما كان محرماً تحريماً صارماً اقتناء أيّ كلب فيها[10]. وكانت ديلوس تدعى في الأزمنة السابقة أورتيغيا.

6- وكانت كيوس في زمن ما ذات أربع مدن؛ ولم يبق فيها الآن سوى مدينتين، هما يوليدا وكارثيا، إذ نزح إليهما سكّان المدينتين الأخريين: سكّان بييسّا إلى كارثيا، وسكّان كوريسيا إلى يوليدا. ومن يوليدا ينحدر الشّاعر المليتي سيمونيدس وابن أخيه باخوليدس، وفي الأزمنة المتأخرة، الطبيب إيراسيستراتوس والفيلسوف المشّائي أريستون نصير بيون البوريسفيني. ويُعتقد أنه كان لدى سكّان يوليدا في زمن ما، قانون يذكره ميناندرس أيضاً:

بين الكيوسيين عرف رائع سنّه فانيوس؛

ينبغي ألاّ يعيش عيشة سيّئة ذلك الذي لا يعيش عيشة جيّدة.

(*كيورتيه- تيرفيلدر* II، 797)

ويبدو أن هذا القانون قضى بوجوب أن يتجرّع السمّ كلّ عجوز تجاوز الستين من عمره، كي يبقى للآخرين ما يكفي من القوت. ويروى أن الأثينيين حاصروا الجزيرة يوماً، فقرر سكّانها قتل كبار السنّ منهم، عندئذٍ رفع الأثينيون الحصار. وتقع يوليدا على مرتفع يبعد ما يقارب 25 مرحلة عن البحر. ويقع مرساها في المكان الذي تقع فيه كوريسيا التي لا يبلغ عدد سكّانها الآن عدد سكّان قرية صغيرة. وغير بعيد عن كوريسيا وعن بييسّا يقع معبد أبوللون السمينثيسي. وبين هذا المعبد وأطلال بييسّا يقوم معبد أثينا النيدوسية الذي بناه نسطور بعد عودته من تحت أسوار طروادا. ويوجد هنا أيضاً نهر إيليكس الذي يجري حول كوريسيا.

7- وتأتي بعد كيوس ثلاث جزر مهمّة، هي ناكسوس، وآندروس، وباروس. وإلى باروس ينتمي الشّاعر أرخيلوخ. وقد أسّس الباروسيون فاسوس وباري، وهي مدينة في البروبونتيدا. ويقولون، إن في هذه المدينة مذبح شهير، لأنّ طول كلّ ضلع من أضلاعه مرحلة كاملة. ويوجد في باروس الحجر الذي يدعى «حجر باروس»، وهو أفضل منحوتة من حجر المرمر.

8- سيروس (المقطع الأول من هذه الكلمة ممدود)، إليها ينتمي ثيريكيدس ابن بابيوس (لقد عاش ثيريكيدس الأثيني في زمن لاحق). وكان هوميروس قد ذكر هذه الجزيرة باسم سيرا:

هناك جزيرة اسمها سيرا

فوق أورتيغيا.

(*الأوذيسا* XV، 403)

9- ميكونوس، هي الجزيرة التي تقول الأسطورة، إن آخر العمالقة الذين قضى هرقل عليهم، مدفونين تحتها. ومن هنا شاع المثل القائل: «كلّهم تحت ميكونوس واحدة»، والمقصود بذلك أولئك الذين يجمعون أشياء ذات طبيعة متباينة تحت عنوان واحد. ويدعو بعضهم الميكونوسيين بالصلعان، لأنّ هذه الظاهرة منتشرة على هذه الجزيرة انتشاراً واسعاً.

10- سيريفوس، هي الجزيرة التي يوافقون معها المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة ديكتوس. فقد رفع ديكتوس بشباكه صندوقاً كان في داخله برسيوس ووالدته دانايا اللذان رمى بهما والد دانايا، أكريسوس إلى البحر. ويقال إن برسيوس قد تربّى ونشأ هنا؛ ولمّا جاء برأس الغورغونا إلى هنا وأراه للسيريفوسيين، تحوّل هؤلاء كلّهم إلى حجارة. وقد فعل برسيوس ما فعله انتقاماً لوالدته، لأنّ ملك الجزيرة أراد أن

يتزوّجها عنوة، وقدم السيريفوسيون له العون في سعيه. وهكذا باتت الجزيرة صخرية، إلى حدّ قال فيه الشعراء الكوميديون، إن غورغونا نفسها التي فعلت بها ما فعلت.

11- أمّا تينوس فليس فيها مدينة كبيرة، لكنّ فيها معبداً كبيراً شهيراً لبوسيدونيوس يقوم على أرض مقدّسة تقع خارج المدينة. وقد شيدت هنا قاعات طعام واسعة جدّاً، الأمر الذي يشير إلى تدفّق أعداد كبيرة من الناس كانت تأتي من شتّى الأماكن المجاورة لتحتفل بالبوسيدونيا مع السكّان المحلّيين.

12- ومن جزر سبورادا جزيرة أمورغوس، موطن الشّاعر اليامبي سيمونيدس، وكذلك جزيرة ليبينث وليروس

هكذا يقول ثوكيديدس: الناس كلّهم حمقى،

ما عدا بروكليس، فبروكليس ليروسيّ أيضاً.

(مقطع I. بيرغك)

والحقيقة أن سكّان الجزيرة اتّهموا بمقاصدهم الشريرة.

13- وعلى مقربة تقع باتموس والجزر الكوراسية. وتقع هذه إلى الغرب من إيكاريا، وهذه الأخيرة إلى الغرب من ساموس. وإيكاريا جزيرة غير مسكونة؛ لكنّ فيها مراعي يستخدمها الساموسيون. وبصرف النظر عن خاصياتها هذه، فالجزيرة معروفة، فقد أُطلق اسمها على البحر المجاور لها والذي تقع فيه أيضاً ساموس وكوسوس، إضافة إلى الجزر الكوراسية التي ذكرناها قبل قليل، وكذلك جزيرة باتموس وجزيرة ليروس. ويُشتهر فيها جبل كيركيتيوس، فهو أكثر شهرة من مدينة آمبيل. وتقع هذه الأخيرة إلى الأعلى من مدينة الساموسيين. ويتّصل البحر الإيكاري في الجنوب بالبحر الكارباثي، ويتّصل هذا الأخير بدوره، بالبحر المصري، أمّا في الغرب فيتّصل البحر الإيكاري بالبحر الكريتي والبحر الليبي.

14- وتقع في البحر الكارباثي أيضاً كثرة من الجزر السبورادية، خاصة بين كوسوس، ورودوس، وكريت. ومن هذه الجزر، إستيباليا، وتيلوس، وخاليكا، والجزر التي ذكرها هوميروس في «سجلّ السفن»:

الرجال الذين يعيشون في نيسيروس، القاطنون كاسوس وكارباثوس،

ومدينة اليفريبيليين كووس، وشعب الجزر الكاليدنية.

(الإلياذا II، 667)

وأنا أضمّ إلى جزر سبورادا الجزر الأخرى كلّها ما عدا كوسوس ورودوس (اللتين سأتحدّث عنهما أدناه)[11]؛ وأنا أذكّر بهما هنا (مع أنهما لا تقعان قرب أوروبا،

بـل قـرب آسـيا)، لأنـني أسـعى في وصـفي هـذا إلى أن أوحّـد بشـكل مـا، سـبورادا مـع كريت وكيكلادا. لكنّني لدى وصفي لآسيا سأضيف وصف الجزر الشهيرة المجاورة لها، كقبرص، ورودوس، وكوسوس، وكيوس، ولسبوس، وتينيدوس. وها أنا انتقل الآن إلى النظر في باقي جزر سبورادا التي تستحقّ الذكر.

15- إستيباليا. تقع بعيداً في عرض البحر؛ وفيها مدينة. تيلوس. تمتدّ على طول منطقة كنيدس؛ وهذه الجزيرة جزيرة طويلة مرتفعة وقليلة العرض، امتداد محيطها 140 مرحلة؛ وفيها مرسى للسفن. خالكيا. تقع على بعد 80 مرحلة من تيلوس، و400 مرحلة من كارباثوس، أمّا عن استيباليا فهي تبعد ضعف هذه المسافة تقريباً. وفي خالكيا قرية تحمل الاسم عينه فيها معبد لأبوللون ومرسى للسفن.

16- وتقع نيسيروس إلى الشمال من تيلوس على مسافة تقارب 60 مرحلة، وهي تبعد المسافة نفسها عن كوسوس. ونيسيروس جزيرة بيضوية الشكل، مرتفعة وصخرية، وغنية بحجارة الرحى. وعلى أيّ حال فإن جيرانها يحصلون منها على وفرة من هذه الحجارة. وفي الجزيرة مدينة تحمل اسم الجزيرة نفسه فيها مرسى للسفن، وينابيع مياه حارّة، ومعبد لبوسيدون. ويبلغ محيط الجزيرة 80 مرحلة. وتقع بالقرب منها جزر صغيرة تدعى جزر النيسيريين. ويقولون، إن نيسيروس كسرة من كوسوس. ويسوقون أسطورة تقول، إن بوسيدون وهو يطارد العملاق بوليبوت كسر بحربته الثلاثية كسرة من كوسوس ورمى العملاق بها. وقد تحوّلت الكسرة إلى جزيرة نيسيروس التي يستلقي العملاق تحتها. وعلى أيّ حال هناك من يقول، إن العملاق يستلقي تحت جزيرة كوسوس.

17- أمّا كارباثوس (يدعوها هوميروس كراباثوس)، فهي جزيرة مرتفعة امتداد محيطها 200 مرحلة. وكان فيها في زمن ما أربع مدن، كما كانت جزيرة ذائعة الصيت. فقد دعوا باسمها بحراً، هو البحر الكارباثي. وكانت إحدى مدنها تدعى نيسيروس، وهي سميّة جزيرة النسيريين. وتقع كارباثوس قبالة ليفكي آكتي التي في ليبيا، وتقع هذه على بعد 1000 مرحلة من الإسكندرية تقريباً، وما يقارب 4000 مرحلة من كارباثوس.

18- وتقع كاسوس على بعد 70 مرحلة من هناك، و250 مرحلة عن رأس سامونوس الواقعة في كريت. ويبلغ امتداد محيطها 80 مرحلة. وفيها مدينة تحمل الاسم نفسه، وتنتشر حولها عدة جزر تدعى جزر الكاسوسيين.

19- ويقال إن هوميروس يدعو سبورادا جزر الكاليدنيين، وإحدى هذه

الأخـيرة، جزيـرة كاليمنــا. ومــن الواضــح أنــه كمــا أن الجــزر المجــاورة للنيســيريين والكاسوسيين والخاضعة لحكمهم، دعيت باسم هـؤلاء، كذلك الجـزر الواقعـة قـرب كاليمنا دعيت جزر الكاليمنيين؛ وربّما كانت كاليمنا تدعى عندئذٍ كاليدنا. لكنّ بعضهم يزعم أنه ليس هناك سوى جزيـرتين كاليـدنيتيْن، همـا ليروس وكاليمنـا اللتان ذكرهما هوميروس. ويقول ديميتري السكيبسيسـي، إن اسم الجزيـرة استخدم بصيغة الجمع كاسم أثينا وطيبة؛ بيد أنه ينبغي بحسب رأيه، فهم كلمات هوميروس على أنهـا خلل في ترتيب الصيغة. فهوميروس لم يكن يريد أن يقول: جزر الكاليدنيين، بل:

الرجال الذين يعيشون في نيسيروس، القاطنين كاسوس وكارباثوس،

مدينة اليفريبيليين كووس، وشعب الجزر الكاليدنية.

إن أكثر نحاس هـذه الجـزر ذو نوعيـة عاليـة، ويمكـن مقارنتـه بنحـاس أتيكـا، لكـنّ النحاس الذي يستخرج من هذه الجزر فريد بجودته، خاصة النحاس الكاليمني.